

حِكايَةُ الفَتى العَرَبيّ

وَقصص أخرى

السيد القمّاحي

مكتبة لبنان ناشِرُون

إشراف : الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

١٠ أ، شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

مكتبة لبنان ناشرون

ص.ب : ٩٢٣٢ - ١١

بيروت - لبنان

وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٨

رقم الإيداع ١٥١٠١/١٩٩٨

الترقيم الدولي ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ٠٣٤٨ - ٥

رسوم : محمد نبيل عبد العزيز

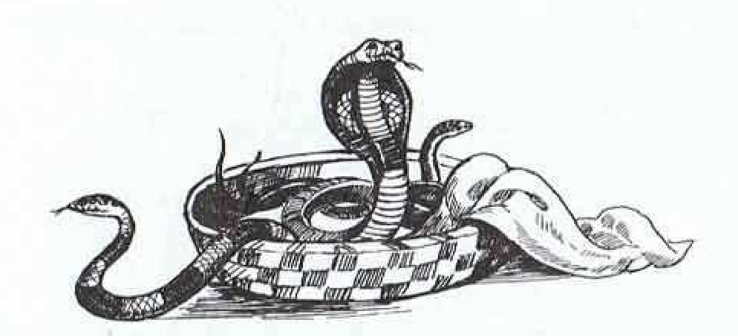
طبع في دار نوبار للطباعة ، القاهرة



حِكايةُ الفَتى العَربيّ

وقصص أخرى

السيد القمّاحي



مكتبة لبنان ناشرون الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

حِكايَةُ الْفتى

« تأَبَّطَ شرًّا »

١ – سلَّةُ الثّعابينِ

قالَتْ لَهُ أُمُّهُ : « كُلُّ فِتْيانِ الحَيِّ يَنْطَلِقونَ ، وَيَأتونَ لأَهْلِهِمْ بِنَباتِ الْفُطْرِ ، فَيَطْبُخونَ وَيَأْكُلونَ ، وأَنْتَ لا أدْري إلى أَيْنَ تَنْطَلِقُ ! »

وَشَعَرَ الْفتى بِلَذْعِ التَّوبيخِ في كَلامِ أُمِّهِ ، وَكَتَمَ غَيْظَهُ ، وَرَدَّدَ في نَفْسِهِ : « سامَحَها الله . . . إِنَّها أُمّي ! »

نَظَرَ إِلَيْها صامِتًا بُرْهَةً ثُمّ قالَ : « إِلَيَّ – إِذًا – بِوِعاءٍ ، سَآتي لَكِ بِنَباتِ الْفُطْرِ ، يا أُمّي ، لِتَطْبُخيهِ ! »

أَحْضَرَتْ أُمُّهُ لَهُ الوِعاءَ ، وَانْطَلَقَ مُسْرِعًا إلى الصَّحراءِ ، ثُمَّ ما لَبِثَ أنْ عادَ ، وَدَخَلَ عَلى أُمِّهِ ، وَناوَلَها الوِعاءَ .

« تَفَضَّلي ، يا أُمِّي ! »

ما إنْ تَناوَلَتْهُ حتّى صَرَخَتْ فَزِعَةً ؛ فالْوِعاءُ مُمْتَلِئٌ عَنْ آخِرِهِ ، بِأَخْطَرِ أَنْواعِ الثَّعابينِ الصَّحْراوِيَّةِ !



وَقَفَ الْفَتى يَتَأَمَّلُ فَزَعَ أُمِّهِ . كانَ صامِتًا ، وَكأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَحْدُثْ .

بَعْدَ أَنْ أَفاقَتْ أُمُّهُ نَظَرَتْ إِلَيْهِ وَفَهِمَتْ عَنْهُ ، وفَهِمَ هُوَ أنَّ رِسالَتَهُ إِلَيْها قَدْ وَصَلَتْ !

لَقَدْ أَرادَ الْفَتى أنْ يَقولَ لأُمِّهِ : إِنَّهُ فَتًى لَيْسَ كَبَقِيَّةِ فِتْيانِ الحَيِّ ، إِنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ أنْ يَمْضِيَ إلى الصَّحْراءِ ، لِيَأْتِيَ بِفُطْرٍ لِلطَّبْخِ ! وَإِنَّما هُوَ يَمْضي إلى الصَّحْراءِ ، لِيَأْتِيَ بِأَشْياءَ أُخْرى ، أَكْبَرَ وأَخْطَرَ .

وَأَرادَ أَنْ يَقولَ إِنَّ « ثابت » ابْنَها – مَعَ ذَلِك – لا يَسْعى إلا لأَهَمِّ طُرُقِ الخَيْرِ ، وَلَو كانَ سَعْيُهُ فيها شاقًا وَعَسيرًا .

وَجَنْيُ الْفُطْرِ لَيْسَ مِنْ عَظائِمِ الأُمورِ ، إِنَّهُ عَمَلٌ تافِهٌ ، لا يَقومُ بِهِ إلا فَتًى ضَعيفٌ أَو عاجِزٌ ، ثُمَّ هُوَ لا يُطْعِمُها فُطْرًا ، وَإِنَّما يَأْتي لَها بِلُحوم الْغِزْلانِ ؛ فَلِماذا تُهينُهُ وَتُوَبِّخُهُ لأَنَّهُ لَمْ يأتِ لَها بِهَذا الْفُطْرِ ؟

هَكَذا أَرادَ أَنْ يَقولَ ثابتٌ لأُمِّهِ ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْها صامِتًا في حينِ تَرْتَعِدُ هِيَ مِنْ رُؤيَةِ الثَّعابينِ ، الَّتي مَلأَ بِها وِعاءَه !

٢– تَأَبَّط شَرًّا

كانَتْ أُمُّ « ثابت » خَشِنَةَ الطَّبْعِ كَخُشونَةِ الْحَياةِ مِن حَوْلِها ، قاسِيَةً كَقَسْوَةِ الصَّحْراءِ الَّتي تَعيشُ بَيْنَ أَحْضانِها . . إِنَّها تُحِبُّهُ ، وتَخافُ عَلَيْهِ ؛ لَكِنْ بِطَريقَتِها ، وَكَما تَفْهَمُ هِيَ الْحُبَّ والخَوْفَ عَلى الابْنِ ، لا كَما يُريدُ هُوَ لَها أَنْ تُحِبَّهُ وَتَرْعاهُ !

وَذاتَ صَباحٍ ؛ جاءَ أَصْدِقاءُ لابْنِها « ثابت » ، وَطَرَقوا الْبابَ ، وَسَأَلوا : « أَيْنَ ثابِتٌ ؟ »

فَقالَتْ أُمُّهُ :

« تأَبَّطَ شَرًّا ، وَخَرَجَ ! »

فَصارَ « تَأبَّط شَرًّا » لَقَبًا اِلْتَصقَ بِهِ ، وَكانَتْ تَقْصِدُ مِنَ الْقَوْلِ أَنَّ فَتاها ، قَدْ وَضَعَ رُمْحَهُ تَحتَ إِبْطِهِ وَخَرَجَ .

٣– أُمُّهُ الْكُبْرى الصَّحْراءُ !

وَلَمْ يَكُنْ خُروجُهُ دائِمًا ، إِلا إِلى الصَّحْراءِ ؛ فَالصَّحْراءُ مَيْدانُهُ ، وساحَةُ لَعِبهِ ، وَمَوْطِنُ حُبِّهِ ، وَكأَنَّما هِيَ أُمُّهُ الْكُبْرى ، وَهُوَ فَتاها وَفارِسُها ، وَطَيْفُها الَّذي لا يَكادُ يُفارِقُها نَهارًا أَوْ لَيْلاً .

تَراهُ مُنْطَلِقًا فَوْقَ رِمالِها ؛ يَجْري خَلْفَ غَزالٍ ، أَوْ مُنْطَلِقًا وَراءَ أَرْنَبٍ أَوْ ثَعْلَبٍ ، أَوْ وَحْشٍ بَرِّيٍّ . أَوْ تَراهُ هابِطًا مِنْ هَضْبَةٍ ، أو صاعِدًا جَبَلاً ، أَوْ تَراهُ كامِنًا عِنْدَ مَوْرِدِ ماءٍ ، في انْتِظارِ أَنْ تَأتِيَ الْغِزْلانُ لِتَروِيَ ظَمَأَها ؛ فَيَصْطادُ مِنْها ما يَشاءُ !

وَكانَ « ثابِت » سَريعَ الْعَدْوِ إِذا جَرى خَلْفَ غَزالَةٍ ،

بِرِجْلَيْهِ وَلَيْسَ فَوْقَ حِصانٍ ، لا يُمْكِنُ أَنْ تَفلِتَ مِنْهُ ، وَما إِنْ يَقْبِضَ عَلَيْها بِطَرِيقَتِهِ ، حَتّى يَشُلَّ حَرَكَتَها ، وَيُسْقِطَها عَلى الأَرْضِ ، ثُمَّ يُسْرِعَ بِذَبْحِها ، في ثَوانٍ مَعْدودَةٍ ، وَيُجَهِّزَ لَحمَها ، وَيُقَطِّعَهُ إِرَبًا ، ثُمَّ يَحْمِلَهُ إِلى بُيوتِ الْفُقَراءِ في حَيِّهِ ، وَيُوَزِّعَهُ عَلَيْهِمْ واحِدًا بَعْدَ الآخَرِ ، ثُمَّ يُبْقي لِنَفْسِهِ وَلأُمِّهِ مِثْلَ ما أَعْطى لأيِّ فَقيرٍ مِنْ هَؤُلاءِ الْفُقَراءِ .

وَ « ثابت » أَوْ « تَأَبَّط شَرًّا » – كَما أَطْلَقَتْ عَلَيْهِ أُمُّهُ – فَتًى قَوِيٌّ ، فارِعُ الطُّولِ ، شُجاعٌ ، جَرِيءٌ مُهَذَّبٌ ، مُرْهَفُ الحِسِّ ، يَتَمَيَّزُ مِنْ بَيْنِ فِتْيانِ الحَيِّ بِأَنَّهُ فارِسٌ مِغْوارٌ، وَشاعِرٌ بارِعٌ ، وَمُتَحَدِّثٌ جَيِّدٌ، وذَكِيٌّ لَبِقٌ .

وَهُوَ – كَذَلِكَ – مُرْهَفُ السَّمْعِ ، يَشْعُرُ بِأَقَلِّ هَمْسٍ ؛ فَقَدْ كانَ يَسْمَعُ سَيْرَ « الْقَطا » عَلى الرِّمالِ ، وَ « الْقَطا » نَوْعٌ مِنَ اليَمامِ يُؤْثِرُ الْعَيْشَ في الصَّحْراءِ .

كَما أَنَّهُ يَشُمُّ رائِحَةَ الْغِزْلانِ عَنْ بُعْدٍ ، وَيَكْمُنُ لَها وَيُفاجِئُها ، وَيَهْجُمُ عَلَيْها في أَيِّ مَكانٍ ، وَخاصَّةً عِنْدَ مَوارِدِ الشُّرْبِ . وَمُطارَدَتُهُ إِيّاها لا تُكَلِّفُهُ عَناءً ، وَلا تُكَبِّدُهُ مَشَقَّةً .

٤ – سِباقُ السُّحُبِ !

كانَ مِنْ عادَةِ « ثابت » أَنْ يَمْضِيَ وَحْدَهُ – غالِبًا – إِلى الصَّحْراءِ ، يَتَجَوَّلُ أَو يَصيدُ أَوْ يَجْلِسُ فَوْقَ رَبْوَةٍ مُرْتَفِعَةٍ ؛ لِيَتَأَمَّلَ فيما حَوْلَهُ ، وَفيما يَقَعُ تَحْتَ بَصَرِهِ ؛ فَهُوَ شاعِرٌ فَنّانٌ .

وَأَحْيانًا تَراهُ فَوْقَ قِمَّةِ جَبَلٍ ، تارِكًا حِصانَهُ يَرْعى عِنْدَ السَّفْحِ ؛ يَأْخُذُ في التَّطَلُّعِ إِلى السُّحُبِ ، الَّتي كانَتْ تَمُرُّ فَوْقَهُ ، قَريبَةً مِنْ رَأْسِهِ ! وَكانَتِ السُّحُبُ تُسْرِعُ مَعَ الرِّيحِ ، وَهِيَ تَمُرُّ فَوْقَ الجِبالِ ، وَكَأَنَّها يُسابِقُ بَعْضُها

بَعْضًا . وَكانَ « ثابتٌ » يَرى في سُرْعَتِها وَنَصاعَتِها جَمالاً لا يُدانيهِ جَمالٌ ، وَكَأَنَّما يُشاهِدُ في رُؤْيَتِها لَوْحَةً مِنَ الطَّبيعَةِ الحَيَّةِ ، يَكْتَنِفُها السِّحْرُ . . . لَوْحَةً مِنَ الجَمالِ وَالجَلالِ ، تَعْرِضُها السَّماءُ الصّافِيَةُ ؛ لِيَنْبَهِرَ بِها كُلُّ ذي نَظَرٍ . . . ثُمَّ هُوَ يَتَصَوَّرُها كائِناتٍ عَلى سَفَرٍ بِعَباءاتٍ بَيْضاءَ شَفّافَةٍ حينًا ، وَسَوْداءَ غامِضَةٍ حينًا آخَرَ ؛ غُموضَ الْوُجْهَةِ الْمُتَّجِهَةِ إِلَيْها . . فَهُوَ يَسْأَلُ نَفْسَهُ : إِلى أَيْنَ تَتَّجِهُ هَذِهِ السُّحُبُ ؟ لا أَحَدَ يَعْلَمُ !

***

وَذاتَ صَباحٍ ، كانَ « ثابت » في جِلْسَتِهِ الْمَعْهودَةِ فَوْقَ إِحْدى الرَّوابي ، فَوَصَلَ سَمْعَهُ وَقْعُ أَقْدامٍ – هَكَذا أَعْلَنَ الحَصى الْمُتَطايِرُ مِنْ أَسْفَلِ حَوافِرِ الْحِصانِ .

وَنَظَرَ « ثابت » . . . إِنَّهُ صَديقُهُ « ابْنُ بُرّاقٍ » ، فَسُرَّ لِرُؤْيَتِهِ ، فَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يُشارِكَهُ فيما يَرى مِنْ جَلالِ

السُّحُبِ وَالجِبالِ ، خُصوصًا في الصَّباحِ الْباكِرِ . وَلَفَتَ « ثابت » نَظَرَ صَديقِهِ إلى سَحابَةٍ تَجْري ، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ .

فَقالَ « ابْنُ برّاق» ، وَقَدْ بَدا عَلى وَجْهِهِ قَلَقٌ :

« لَيْتَها حَمَلَتْني بَعيدًا هَذِهِ السَّحابَةُ !»

وَفَهِمَ « ثابتٌ » أَنَّ صَديقَهُ لَيْسَ عَلى ما يُرامُ .

هَكَذا كانَ شَأْنُ الْكَثيرِ مِنَ الشَّبابِ ، يَسودُ حَياتَهُمُ الْفَراغُ ، وَيَكادُ يَقْتُلُهُمُ الْمَلَلُ ، وَكانَ عَلى « ثابت » أَنْ يُعْمِلَ فِكْرَهُ ، وَيَبْحَثَ عَنْ عَمَلٍ يَشْغَلُهُ وَصَديقَهُ ، وَيُخَلِّصُهُما مِنْ جَوِّ الرَّتابَةِ ، وَما فيه مِنْ كَسَلٍ وَخُمولٍ ، ويُدْخِلُهُما في قَلْبِ مُغامَرَةٍ تُثيرُ فيهِما الحَمِيَّةَ وَالنَّشاطَ ، وَتُوقِدُ في قَلْبَيْهِما شُعْلَةَ الْعَزيمَةِ ، فَقالَ :

« اسْمَعْ ، يا ‹‹ ابن بُرّاق ›› . . هَلْ تَنْطَلِقُ مَعي ؛ لِنَلْحَقَ بِهَذِهِ السُّحُبِ ؟»

« تَقْصِدُ نُسابِقُها بِالخَيْلِ ؟»

ثابت : « نَعَم ، ثُمَّ نَصِلُ إلى الْمَجْهولِ !»

وَيَبْتَسِمُ « ابنُ بُرّاقٍ » وَقَدْ بَدَأَ إحْساسُهُ بِالْمَلَلِ يَتَلاشى ، وَشُعورُهُ بِالرَّتابَةِ يَتَبَدَّدُ .

يُرَحِّبُ ؛ وَيَنْطَلِقانِ كُلٌّ فَوْقَ حِصانِهِ ، لا يَعْرِفُ أيُّ واحدٍ فيهِما أَهُوَ في سِباقٍ مَعَ الرِّيحِ أَمْ مَعَ السَّحابِ ، أَمْ مَعَ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ !

إنَّهُما كَجِنِّيَّيْنِ يَنْدَفِعانِ انْدِفاعًا قَوِيّا عَنيفًا في الصَّحْراءِ الْمُمْتَدَّةِ ، لا أوَّلَ لَها وَلا آخِرَ ، وَمِنْ فَوقِهِما السُّحُبُ تَنْدَفِعُ هِيَ الأخْرى ، وَتَرْكُضُ فَوْقَ قِمَمِ الجِبالِ - لِيَجِدا أَنْفُسَهُما - أخيرًا - قَدْ وَصَلا إلى مَكانٍ مَعْلومٍ ، لا مَجْهولٍ !

٥- الزَّهْرَةُ والْغولَةُ !

إنَّهُ مَكانٌ تَكْثُرُ فيه الغِزْلانُ ؛ فَيَصْطادانِ غَزالَةً ،

وَيَقومانِ بِشَيِّها عَلى النّارِ ، وَيَتناوَلانِ غَداءَهُما في سُرورٍ ، وَيَتبادَلانِ حَديثَ الشَّبابِ عَنِ الْقُوَّةِ وَالسُّرْعَةِ في الجَرْيِ وَالْفُروسِيَّةِ وَالصَّيدِ .

ثُمَّ يَتطَرَّقانِ إلى الحَديثِ عَنِ الْغولَةِ !

يَقولُ « ثابتٌ » : « إنَّ الْغولَةَ تَسْكُنُ جَبَلَ (اللِّوى) ، في بَطْنِ مَغارَةٍ لا يَعْلَمُها أَحَدٌ حَتّى الشّاعِرُ امْرُؤُ الْقَيْسِ ؟»

وَما إنْ يَفْرُغُ « ثابت » مِنْ حَديثِهِ عَنِ الْغولَةِ حَتّى يُثَنِّيَ بالحَديثِ عَنِ « الزَّهْرَةِ » الَّتي يُحِبُّها ، وَالَّتي تُوجَدُ في مَكانٍ ما ، وَالَّتي يَبْعَثُ إِلَيْها بِشِعْرِهِ مَعَ الْهَواءِ !

يَبْتَسِمُ « ابن برّاق » - وَقَدِ انْزاحَ عَنْ صَدْرِهِ كُلُّ شُعورٍ بِالْمَلَلِ - وَ يَسْأَلُ صاحِبَهُ في خُبْثٍ : « وَ مَتى سَتَزورُ ‹‹ الزَّهْرَةَ ›› ؟»

يَبْتَسِمُ « ثابت » بِدَوْرِهِ ، وَيَنْبَسِطُ وَجْهُهُ عَنْ مَلامِحَ مُحَبَّبَةٍ نادِرَةٍ ؛ فَالزَّهْرَةُ في الْواقِعِ لَيْسَتْ نَجْمًا يَسْكُنُ

السَّماءَ ، وَلَيْسَتْ نَبْتًا يَسْكُنُ الْبَرِّيَّةَ ، وَإِنَّما هِيَ فَتاةٌ مَحْبوبَةٌ ، تَسْكُنُ في أَقْصى أَحْياءِ الجَنوبِ مِنَ الصَّحْراءِ .

تِلْكَ الْفَتاةُ الَّتي تُجيدُ غِناءً يَطْرَبُ لَهُ قَلْبُهُ ، وَتَهْتَزُّ لَهُ نَفْسُهُ .

يَلْتَفِتُ « ثابت » إلى صَديقِهِ : « سَأَزورُها هَذا الْمَساءَ . »

« إذًا أَنْتَ لَنْ تَذْهَبَ هَذا الْيَوْمَ إِلى الْغولَةِ . »

فَيُجيبُ ثابتٌ ضاحِكًا : « لا . . . لَنْ أَذْهَبَ إلى الْغولَةِ الْيَومَ !»

وَيَشْتَرِكانِ في ضَحِكٍ .

في الْمَساءِ يَجْلِسانِ مَعًا مُتَجاوِرَيْنِ - في نادٍ يَجْتَمِعُ فيهِ الرِّجالُ قَريبًا مِنَ النِّساءِ - وَكانَتْ « زَهْرَةٌ » هِيَ عِطْرَ هَذا النّادي ، وَشَذاهُ وَلَحْنَهُ الْعَذْبُ ؛ فَقَدْ كانَتِ الْمُطْرِبَةَ الَّتي تَشْدو بالْغِناءِ ، وَكانَ النّاسُ يَأْتونَ إِلَيْها مِنْ شَمالِ

الأَحْياءِ وَجَنوبِها ؛ لِيَسْتَمِعوا إلى غِنائِها ، وَيُرَطِّبوا حَياتَهُمْ بِهِ .

كانَ « ابن برّاق » يَتَمايَلُ طَرَبًا وَهُوَ يَسْتَمِعُ ؛ في حينِ كانَ « ثابت » مُطْرِقًا ساكِنًا ، وَ كأَنَّما هُوَ غائِبٌ عَنِ الدُّنْيا ، كَأَنَّهُ في صَلاةٍ خاشِعَةٍ أَمامَ رَبَّةِ الْفَنِّ !

فالْغِناءُ الَّذي يَسْمَعُهُ مِنْ « زهرة » لَيْسَ مُجَرَّدَ كَلِماتٍ وَأَلْحانٍ تُرَدِّدُها ، وَإِنَّما هُوَ مَشاهِدُ حَيَّةٌ ، تَسْري مَسْرى الدِّماءِ في عُروقِهِ ، أَوَ هُوَ بَلْسَمٌ شافٍ لِلنَّفْسِ الْعَليلَةِ ، أَوْ هُوَ شَريطٌ مُبْهِرٌ مِنَ الْمَشاهِدِ السّاحِرَةِ ، تَتَوالى مَشاهِدُهُ أَمامَ عَيْنَيْهِ . إِنَّهُ - وهُوَ الشّاعِرُ الْمُرْهَفُ - لا يَكادُ يُصَدِّقُ أَنَّ مَشاعِرَ الْقَلْبِ الجَميلَةَ يُمْكِنُ أَنْ تَتَجَسَّدَ في أَصْواتٍ وَأَلْحانٍ بَشَرِيَّةٍ ، ساحِرَةٍ وَعَذْبَةٍ عُذوبَةً تَسْمو حتّى عَلى الطَّبيعَةِ !

وَيَكْتَنِفُ « ثابت » شَيْءٌ مِنْ جَلالِ الشُّعورِ ، وَعَظَمَةِ

الْقَلْبِ . لا يَجِدُ لَهُ تَفْسيرًا بِإِشارَةٍ ، أَوْ تَفْصيلاً بِلُغَةٍ ! فَيَقولُ لِصَديقِهِ « ابن بُرّاق » ، بَعْدَ أَن يَنْصَرِفا :

« ما كُنْتُ أَحِسُّ بِهِ مِنْ جَمالِ الْغِناءِ ، يَسْمو فَوْقَ أَيِّ لُغَةٍ وَلَوْ كانَتْ شِعْرًا !»

فَيَسْأَلُهُ صَديقُهُ : « مَتى تَتَزَوَّجُها إذًا ، يا ‹‹ ثابت ›› ، تِلْكَ الزَّهْرَةَ الْبَديعَةَ ؟»

وَلَكِنَّ « ثابت » يَصْمُتُ ، وَلا يُجيبُ في الْحالِ ، فَيُواصِلُ « ابن بُرّاق » قَوْلَهُ : « إِنَّها تُحِبُّكَ ، مِثْلَما تُحِبُّها ، أَمْ أَنَّكَ تُفَضِّلُ الْغولَةَ عَلَيْها ؟»

يُجيبُ « ثابت » بِهُدوءٍ دونَ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلى « ابن برّاق » : « لا يَجِبُ أَنْ يَقْتَرِنَ مِثْلي بِبَريئَةٍ !»

فَيَنْظُرُ « ابن برّاق » في دَهْشَةٍ إِلى وَجْهِ « ثابت » فَهُوَ لَمْ يَفْهَمْ .

وَيُكْمِلُ « ثابت » حَديثَهُ لِيَزْدادَ « ابن برّاق » دَهْشَةً :

« كَيْفَ أَقْتَرِنُ بِمَحْبوبَةٍ وَأَنْقُلُها مِنَ الأمانِ إلى الخَطَرِ ؟»

يَسأَلُ « ابن برّاق » : « تَقْصِدُ خَطَرَ الْفَقْرِ ؟»

« وَخَطَرَ الحَرْبِ . . . حَرْبي مَعَ أَعْداءِ الحَيِّ ، كَيْفَ تَنسى أَنّي كَثيرُ الْكَرِّ والْفَرِّ ؛ كَثيرُ الْهِجْرَةِ إلى الصَّحْراءِ ؛ وَكَيْفَ تَنْسى ، يا ‹‹ ابن براق ›› ، أَنَّ هُناكَ أَعْداءً يَطْلُبونَ رَأْسي ، وَأَعْداءً أَطْلُبُ رُؤوسَهُمْ !»

لَمْ يَتَكَلَّمِ « ابن برّاق » ، فَيُواصِلُ « ثابت » :

« وَإذاً كَيْفَ يَرْضى الْواحِدُ لِنَفْسِهِ أَنْ تُشارِكَهُ إِنْسانَةٌ حَياةً مَحْفوفَةً بالشَّرِّ وَالشَّرَرِ ؟»

يَقولُ « ابن برّاق » : « إِذاً فَأَنْتَ لَنْ تَتَزَوَّجَها ؟»

« لَنْ أَتَزَوَّجَها ، وَإِنْ ظَلِلْتُ أُحِبُّها لِيَكُنْ حُبّي لَها مِظَلَّةً تَقي حَياتَها مِنْ لَظى حَياتي !»

يُضيفُ « ثابت » ، بَعْدَ صَمْتٍ :

« لَنْ يَفْعَلَ هَذا إِنْسانٌ غَيْري ، يُقَدِّرُ وَيَحْتَرِمُ صِدْقَ قَلْبِهِ وَعَقْلِهِ !»

***

٦- ثَوْرَةُ الْغَضَب

ذاتَ يَوْمٍ . . فاجَأَتْهُ أُمُّهُ بِأَنْ تَزَوَّجَتْ ، وَلَمّا يَمْضِ عَلى وَفاةِ أَبيهِ سِوى زَمَنٍ قَليلٍ ؛ فَأَشْعَلَ هذا الْحادِثُ في نَفْسِهِ ثَوْرَةً عارِمَةً ، وَأَضْرَمَ في قَلْبِهِ غَضَبًا شَديدًا .

وانْزَوى « ثابتٌ » أَيّامًا طَويلَةً ، لائِذًا بالصَّحْراءِ ، لا يَعودُ إلى الْبَيْتِ ، لا يَرى أَحَدًا ، وَلا يَراهُ أَحَدٌ .

وَلَمّا عادَ إلى الحَيِّ لَمْ يَرْغَبْ في أنْ يُكَلِّمَ أَحَدًا ، أَوْ يُكَلِّمَهُ أَحَدٌ ، وَإِذا صادَفَهُ صَديقٌ في الطَّريقِ وَبادَرَهُ بالسُّؤالِ :

« ثابتُ . . أَيْنَ كُنْتَ ؟»

كانَ لا يَرُدُّ عَلَيْهِ ، وَيَكْتَفي بالنَّظَرِ إلى رُمْحِهِ ، أَوْ يَتَحَسَّسُ سِكِّينًا كانَتْ مُعَلَّقَةً في جَنْبِهِ !

فَيَفْهَمُ صَديقُهُ عَنْهُ ، فَلا يُلِحُّ في سُؤالِهِ !

الْكُلُّ يَعْرِفُ طَبْعَ « ثابت » الهادِئَ الْغاضِبَ ، والْكُلُّ لا يَزيدُ عَلى أنْ يَحْتَرِمَ هَذا الصَّمْتَ الَّذي يُبْديهِ ، وَهَذا الشُّموخَ النَّبيلَ الَّذي يُظْهِرُهُ .

فَإذا كانَ الصَّديقُ عَزيزًا كَـ « ابن برّاق » يَكْتَفي بِأَنْ يَقولَ لَهُ رَدًّا عَلى سُؤالِهِ :

« سَآتي اللَّيْلَةَ إلى النّادي ، يا ابنَ برّاقٍ !»

وَفي الْمَساءِ إذا دَخَلَ الحَيَّ ، وَجَلَسَ مَعَ أصْدِقائِهِ ، كانَ الصَّمْتُ يَكْتَنِفُهُ غالِبًا ، لا يَتَكَلَّمُ إلا نادِرًا ؛ عِنْدَما يَقولُ شِعْرًا تَلْبِيَةً لِطَلَبٍ ، أوْ عِنْدَما يَقُصُّ عَلَيْهِمْ قِصَّةً قَصيرَةً عَنْ إحْدى مُغامَراتِهِ في الصَّحْراءِ ، أَوْ عَنْ قَتْلِهِ لأَحَدِ الأَشْرارِ ، أَوْ عَنْ لِقائِهِ بِالْغولَةِ .

وَكانوا يَشْعُرونَ مِنْ حَديثِهِ أنَّ بَيْنَ جَوانِحِهِ جَمْرَةَ غَضَبٍ مُتَّقِدَةً ، كَما يَعْرِفونَ مَبْلَغَ كُرْهِهِ لِزَوْجِ أُمِّهِ فَكانوا يُحادِثُونَهُ بِحِسابٍ ، وَيَتَحاشَوْنَ تَوَتُّرَهُ مُنْذُ تَمَّ هَذا الزَّواجُ .

وَزَواجُ أُمِّهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ ما يُبَرِّرُهُ في نَظَرِهِ بَعْدَ وَفاةِ أبيهِ ؛ فَهُوَ حاميها وَراعيها بَعْدَ وَفاتِهِ . ثُمَّ هُوَ لَمْ يَرْفُضْ لَها طَلَبًا قَطُّ ، وَلَمْ يَحْرِمْها مِنْ شَيْءٍ تَتَمَنّاهُ ، أَوْ تَهْفو نَفْسُها إلَيْهِ . لَقَدْ وَفَّرَ لَها الحِمايَةَ وَالطَّعامَ وَالشَّرابَ ، وَأَغْناها عَنِ الحاجَةِ ، بِرَغْمِ صِغَرِ سِنِّهِ وَيُتْمِهِ ، وَبِرَغْمِ فَقْرِهِ .

فَلِماذا تَتَزَوَّجُ أُمُّهُ إذًا ؟

هَكَذا كانَ يُرَدِّدُ بَيْنَ أصْدِقائِهِ ، أَوْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ .

وَرَغْمَ أَنَّ زَوْجَ أُمِّهِ كانَ رَجُلاً شاعِرًا ، وَفارِسًا شَهيرًا يُشارُ إلَيْهِ بالْبَنانِ ؛ وَبِرَغْمِ مَكانَتِهِ في قَوْمِهِ ، وَذُيوعِ اسْمِهِ في أَوْساطِ الشُّعَراءِ ، والكُلُّ يَعْرِفُ مَنْ هُوَ « أبوكبير »

الشّاعِرُ وَالفارسُ- فَإنَّ هَذا كُلَّهُ لَمْ يَغْفِرْ لَهُ فَعْلَتَهُ عِنْدَ « ثابت » أو « تأبّطَ شرًّا » .

فَإذا وَقَفَ أَمامَهُ أَوْ صادَفَهُ في طَريقِهِ ، أوِ الْتَقاهُ في الْبَيْتِ الَّذي يُقيمُ فيهِ مَعَهُ ، فَإنَّ حالَةً مِنَ التَّوَتُّرِ وَالْغَيْظِ ، كانَتْ تَعْتَري « ثابت » ؛ فَيُحاوِلُ « أبو كبير » - زَوْجُ أُمِّهِ - أنْ يَسْتَرْضِيَهُ ، وَيَسْعى لِتَهْدِئَةِ مَشاعِرِهِ ؛ لِيُخَفِّفَ مِنْ هَذا الْغَضَبِ الْمُتَّقِدِ ، فَيُناديهِ بِصَوْتٍ رَقيقٍ :

« ثابتُ . . لَمْ أَرَكَ لِثَلاثَةِ أيامٍ . . أيْنَ كُنْتَ ؟ »

فَلا يُجيبُهُ « ثابتٌ » وَيَمْضي في طَريقِهِ بَعْدَ أنْ يُظْهِرَ لَهُ شَيْئًا مِنَ اشْمِئْزازِهِ وَنُفورِهِ !

لَقَدِ اعْتَبَرَ « ثابتٌ » زَوْجَ أُمِّهِ دَخيلاً في بَيتِهِ ، وَمُسْتَوْلِيًا عَلى أَعَزِّ إنْسانٍ لَدَيْهِ .

وَهَلْ بَعْدَ أُمِّهِ « أبو كبير » أَوْ « أبو صغير » ؟

وَحَزَّ في نَفْسِ « ثابت » كَدُّهُ مِنْ أَجْلِ أُمِّهِ ، وَشَقاؤُهُ - لَيْلاً وَنَهارًا - لإِسْعادِها ، وَتَلْبِيَةِ جَميعِ طَلَباتِها ، وَقَضاءِ كُلِّ احْتِياجاتِها ، حتَّى يُغْنِيَها وَيَكْفِيَها ، ثُمَّ إذا هي تَتَنَكَّرُ لَهُ ، وَتُفَضِّلُ عَلَيْهِ رَجُلاً غَريبًا ، تَزرَعُهُ في بَيْتِها وَبَيْتِهِ - بِجوارِهِ !

لَقَدْ كَرِهَ « ثابت » مِنْ أُمِّهِ ما فَعَلَتْ ، وَبَرِمَ بِزَواجِها هَذا بَرَمًا شَديدًا ، وَصَدَّ عَنْ مُحاوَلاتِها لاسْتِرْضائِهِ . غَيْرَ أَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ ، لَمْ يَجْرَحْ مَشاعِرَها قَطُّ ، وَلَمْ يَمَسَّ إحْساسَها بِأذًى يَوْمًا . فَهِيَ تَأْمُرُهُ فَيُطيعُها كَما كانَ ، وَتُكَلِّمُهُ فَيُصْغي إلَيْها باهْتِمامٍ ، وَإذا حادَثَها فَفي أَدَبٍ جَمٍّ كَعَهْدِهِ مَعَها دائِمًا ، وَإذا طالَبَتْهُ بِشَيْءٍ سارَعَ بِتَلْبِيَتِهِ لَها دونَ إبْطاءٍ أَوْ تَذَمُّرٍ ، وَإذا نَهَرَتْهُ انْصَرَفَ عَنْها بِهُدوءٍ دونَ عُبوسٍ أَوْ تَهَوُّرٍ .

فَهُوَ هُوَ لَمْ يَتَغَيَّرْ ، وَلَمْ يَتَحَوَّلْ تِجاهَها سُلوكُهُ . وَإنْ تَغَيَّرَ إحْساسُهُ وَ شُعورُهُ ، لَكِنْ دُونَ كَراهِيَةٍ عَلى الإِطْلاقِ . . فَهُوَ يَكْرَهُ الْفِعْلَ ، وَ لا يَكْرَهُ صاحِبَ

الْفِعْلِ .

وَالْفِعْلُ هُوَ الزَّواجُ بَعْدَ وَفاةِ أبيهِ .

وَالْفاعِلُ هُوَ الأمُّ ، أَعَزُّ إِنْسانٍ لَدَيْهِ !

***

٧– مأزِقُ « أبو كبير » !

لَمْ يَنَلِ الْيأسُ مِنْ « أبو كبير » ، زَوْجِ أُمِّهِ ، وَلَمْ يَتطَرَّقِ الْمَلَلُ إِلى نَفْسِهِ ، فَهُوَ يُعيدُ الْكَرَّةَ ، مُحاوِلاً التَّقَرُّبَ مِنْهُ ، مُظْهِرًا التَّوَدُّدَ إِلَيْهِ ، لَكِنَّ « ثابت » أو « تَأَبَّطَ شَرًّا » يَنْظُرُ إِلَيْهِ في صَمْتٍ وَتَجَهُّمٍ ، كَأَنَّما يُدَبِّرُ في نَفْسِهِ أَمْرًا !

هَكَذا في كُلِّ مَرَّةٍ ، يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ « أبو كبير » ، يَجِدُهُ مُرْبَدَّ الْوَجْهِ ، مُقَطِّبَ الجَبينِ ، نافِرًا مِنْهُ ، ضائِقًا بِهِ .

فَيُحَدِّثُ « أبو كبير » نَفْسَهُ :

« تُرى . . ماذا تَنْوي أَنْ تَفْعَلَ بي ، يا تَأَبَّطَ شَرًّا ؟

وَمِمّا يَزيدُ الأَمْرَ سوءًا أَنَّ الْفَتى كانَ يَزْدادُ صَلابَةً كُلَّ يَوْمٍ ، وَيَزْدادُ فُتُوَّةً وَقُوَّةً بِمُرورِ الزَّمَنِ ، ثُمَّ – وَهُوَ الأَمْرُ الأَخْطَرُ – كانَ يَزْدادُ قَبولاً في قُلوبِ النّاسِ في الحَيِّ ما عَدا قَلْبَ « أبو كبير » !

فَالْفَتى طَلْقُ اللِّسانِ ، فَصيحُ الْكَلامِ ، سَريعُ الجَرْيِ ، سَديدُ الرَّأْيِ ، مُحْكَمُ الرَّمْيَةِ إِذا رَمى بِالحَرْبَةِ أَوْ طَعَنَ بِالرُّمْحِ .

وَلَمْ يَتَحَمَّلْ « أبو كبير » ما يَراهُ بِعَيْنِهِ ، وَما يُحِسُّهُ بِقَلْبِهِ ، وَخافَ عَلى نَفْسِهِ !

ذاتَ يَوْمٍ . هَمَسَ إِلى زَوْجَتِهِ ، « أم ثابت » :

« وَاللهِ . . إني أَرْتابُ في هَذا الْفَتى ؛ فَماذا تَرَيْنَ ، يا أمَّ ثابتٍ ؟ »

فَنظَرَتْ إِلَيْهِ ، كَأَنَّما تَطْلُبُ مِنْهُ تَوْضيحًا ، فَقال :

« هَذا الوَلَدُ . . ابْنُكِ . . لا آمَنُ مِنْهُ عَلى نَفْسي ! »

فَسألَتْهُ : « وَماذا تَرى أنْتَ ؟ »

فَقالَ : « أنا الَّذي أسْألُ ! ماذا تَريْنَ مِنْ رأيٍ ؟ إنَّ وَلَدَكِ صار خَطيرًا . »

فَفَهِمَتْ وَقالَتْ : « أَنْتَ فارِسٌ حَكيمٌ ، اِصْنَعْ ما تَراهُ صَوابًا ! »

وَ ظَنَّ « أبو كبير » أنَّ في كَلامِ زَوْجَتِهِ « أُمِّ ثابتٍ » تَخْويلاً مُطْلَقًا في أَنْ يَفْعَلَ بابْنِها ما يُريدُ للتَّخَلُّصِ مِنهُ ، كَيْ يُزيحَ عَنْ نَفْسِهِ هَذا « الشَّرَّ » الَّذي يَتَرَبَّصُ بِهِ ، وَرُبَّما اليَوْمَ وَلَيْسَ غَدًا !

وَراحَ « أبو كبير » يُفَكِّرُ ، وَيُحاوِلُ تَبْريرَ ما سَوْفَ يَفْعَلُ بِـ « ثابت » !

لَقَدْ صارَ « ثابت » مِنَ القُوَّةِ بِمَكانٍ ؛ إنَّهُ تَفَوَّقَ عَلى كافَّةِ فِتْيانِ الحَيِّ ، بَلْ وَالأَحْياءِ المُجاوِرَةِ . وَالمُصيبَةُ

الأكْبَرُ أنَّ هَذا الفَتى قَدْ عَزَمَ عَلى الزَّواجِ مِنْ غولَةٍ ! وَصارَ يَتَرَدَّدُ عَلى مَغارَتِها في قَلْبِ جَبَلِ (اللِّوى) !

كانَتْ هَذِهِ آخِرَ الأَخْبارِ الَّتي بَلَغَتْ « أبو كبير » عَنْ « ثابت » ، وَقَدْ شاعَتْ هَذِهِ الأَنْباءُ ، وَصارَ يُرَدِّدُها الجَميعُ مِنْ سُكّانِ الصَّحْراءِ وَسُكّانِ الحَيِّ عَلى السَّواءِ !

قالوا : « إنَّهُ يَمْضي إلى مَأواها سِرًّا ، في بَطْنِ ‹‹ اللِّوى ›› ، وَهُوَ بِذَلِكَ قَدْ جَرُؤَ عَلى ما لَمْ يَجْرُؤْ عَلَيْهِ فَتًى مِنَ الإِنْسِ مِنْ قَبْلُ ! »

اِسْتَمَعَ « أبو كبير » إلى هَذِهِ الأَخْبارِ ، وَتَسارَعَ نَبْضُهُ وَتَراخَتْ أعْصابُهُ ، وَشَعَرَ كَأَنَّما يَدُ « ثابت » تَمْتَدُّ لِتَقْبِضَ عَلى عُنُقِهِ ؛ كَي تَسْتَلَّ رُوحَهُ مِنْ جَسَدِهِ ، وَلا تَتْرُكَهُ إلا جُثَّةً هامِدَةً ، مُلْقاةً عَلى الرِّمالِ !

لَكِنَّ « أبو كبير » تَماسَكَ ، وَقالَ لِلْجَماعَةِ الَّتي حَدَّثَتْهُ عَنْ أَخْبارِ « تَأَبَّطَ شَرًّا » : « أَ حَقًّا ذَهَبَ إلى بَيْتِ الغولَةِ ؟ »

قالَ أَحَدُهُمْ : « نَعَمْ . أَلَمْ تَسْمَعْ شِعْرَهُ الَّذي قالَهُ فيها ؟»

قالَ « أبو كبير » : « لَمْ أَسْمَعْ شَيْئًا . »

قال الْمُتَحَدِّثُ : « إذًا فاسْتَمِعْ . »

وَأَصْبَحْتُ وَالْغولُ لي جارَةٌ   فَيا جارَةً أَنْتِ ما أَغْوَلا
وَمَنْ يَكُ يَسْأَلُ عَنْ جارَتي   فَإِنَّ لَها بِاللِّوى مَنْـزِلا

وَأَضافَ الْمُتَحَدِّثُ :

« هَكَذا تَرى أَنَّ ‹‹ ثابت ›› يُجاوِرُ الْغولَةَ أَوْ يَمْضي إِلَيْها في أَيِّ وَقْتٍ يَشاءُ في يُسْرٍ وَسُهولَةٍ . . بَلْ وَيَطْلُبُ مِمَّنْ يَسْأَلُ عَنْهُ وَيُريدُهُ ، أَنْ يَذْهَبَ إِلَيْهِ عِنْدَ جارَتِهِ الْغولَةِ ؛ في جَبَلِ اللِّوى !»

وَكانَ هَذا فَوْقَ ما يُطيقُ « أبو كبير » !

فَالْتَفَّ بِشَمْلَتِهِ ، وَحَيّا جَماعَةَ النّاسِ الّتي تَتَحَدَّثُ ، وَنَهَضَ مُنْصَرِفًا ، ثُمَّ راحَ في دُوّامَةٍ مِنَ الحَيْرَةِ وَالتَّفْكيرِ !

٨- أبو كبير يَتَمَنّى الْمَوْتَ !

مَضى ما يَقْرُبُ مِنْ عامٍ ، وَ« أبو كبير » ، كارِهٌ لِحَياتِهِ ، وَحَياةِ هَذا الْفَتى ، وَقَدْ أَصْبَحَ يَراهُ كُلَّ يَوْمٍ غُصَّةً في حَلْقِهِ ، وَقَذًى في عَيْنَيْهِ ، وَمَصْدَرًا لِتَعاسَتِهِ وَحُزْنِهِ ، وَمَبْعَثًا لاضْطِرابِهِ وَقَلَقِهِ .

وَكُلَّما سَمِعَ « أَبو كبير » النّاسَ يَتَحَدَّثونَ عَنْ شَجاعَةِ « ثابت » أَوْ يَتَناشَدونَ شِعْرَهُ ، أَوْ يَتَكَلَّمونَ عَنْ عَلاقَتِهِ بِالْغولَةِ . . فاضَ هَمّا ، وَمَرِضَ غَمّا !

وَالْفَتى ، يَزْدادُ تَجَهُّمًا عِنْدَ لِقائِهِ بِهِ ، وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظْرَةً تَكادُ تَحْرِقُهُ ، وَيَتَحاشى مَجْلِسَهُ ، وَيُشيحُ عَنْهُ بِوَجْهِهِ ، عِنْدَما تَبْدو مِنْهُ أَيُّ بادِرَةٍ لإِظْهارِ الْوُدِّ وَالتَّقَرُّبِ مِنْهُ . وَأَحْيانًا يُتَمْتِمُ ؛ فَيَظُنُّ « أَبو كبير » تَمْتَمَتَهُ تَوَعُّدًا ، وَنَظَراتِهِ تَهْديدًا .

وَيَأْكُلُ الْغَيْظُ قَلْبَهُ عِنْدَما يَرى « ثابت » طَلْقَ الْوَجْهِ مَعَ

غَيْرِهِ ، لَطيفَ الْمَعْشَرِ مَعَ أصْدقائِهِ وَرُفَقائِهِ ، رَقيقَ الحاشِيَةِ مَعَ جَميعِ النّاسِ ، جَذّابَ الحَديثِ ، مُمْتازَ السُّلوكِ ، جَيِّدَ الأسْلوبِ ؛ سَواءٌ في كلامِهِ ، أَوْ في صَمْتِهِ !

لِهَذا كَثيرًا ما رَفَعَ « أبو كبير » يَدَيْهِ ، إلى السَّماءِ ضارِعًا إِلَى اللهِ ، أَنْ تنزِلَ بِالْفَتى نازِلَةٌ ، أَوْ تَحُلَّ بِهِ صاعِقَةٌ ، حَتّى يَزولَ غَمُّهُ ، وَ يَنْجَلِيَ هَمُّهُ ، وَتَهْدَأَ نَفْسُهُ ، وَيَشْعُرَ بِالأَمْنِ وَالسَّلامِ .

٩- الإغارَةُ

ذاتَ لَيْلَةٍ شَديدَةِ الْبُرودَةِ ؛ عاصِفَةِ الرِّيحِ الَّتي كانَتْ تُلْهِبُ بِسِياطِها الْوُجوهَ - أَغارَ « تأبَّط شَرًّا » ، وَ زَميلُهُ « ابن برّاق » عَلى أعْداءٍ لَهُما مِنْ قَبيلَةٍ تُسَمَّى « بُجَيْلَةَ » . وَاسْتَوْلَيا عَلى بَعْضِ أَمْوالِها ؛ رَدًّا عَلى إغارَةٍ سابِقَةٍ .

وَفي أَثْناءَ الإغارَةِ ، أَحَسَّ بِهِما الْقَوْمُ ، فَخَرَجوا مُنْطَلِقينَ وَراءَهُما ، فَاتَّجَهَ « ثابت » وَزَميلُهُ إِلَى الطُّرُقِ الْوَعْرَةِ ، الَّتي يَصْعُبُ سُلوكُها ؛ كَي لا يَتَمَكَّنَ رِجالُ « بجيلة » مِنْ مُتابَعَتِهِما ، وَيُصيبَهُمُ الْيَأْسُ مِنَ الْعُثورِ عَلَيْهِما . وَبِالْفِعْلِ أَعْيَتِ الطُّرُقُ الصَّعْبَةُ رِجالَ « بُجَيْلَةَ » فَلَمْ يَسْتَطيعوا صُعودَ الْهِضابِ وَراءَ « ثابت » وَزَميلِهِ .

لَمْ يَكُنْ أمامَ الْقَوْمِ سِوى الْكُمونِ لَهُما في السَّهْلِ ، أَسْفَلَ أَحَدِ الجِبالِ ، مُسْتَعِدّينَ بِأَسْلِحَتِهِمُ الْمُشْرَعَةِ ، قَريبًا مِنْ بِئْرِ ماءٍ ؛ فَقَدْ تَوَقَّعوا أَنْ يَنْزِلَ « تأبَّطَ شَرًّا » أَوْ زَميلُهُ لِلشُّرْبِ ، وَعِنْدَئِذٍ يَكونُ الْهُجومُ . وَكانَ الصَّديقانِ لا يَدْرِيانِ شَيْئًا عَنْ هَذا الْكَمينِ ، وَلا يَحْسِبانِ لَهُ حِسابًا .

وَحَدَثَ مَا تَوَقَّعَهُ رِجالُ « بُجَيْلَةَ » ؛ فَقَدْ قَصَدَ الشّابّانِ الْبِئْرَ ، بَعْدَ أنْ بَلَغَ مِنْهُما الْعَطَشُ مَبْلَغَهُ ، وَقَبْلَ أَنْ يَقْتَرِبا مِنَ الْبِئْرِ ، نَظَرَ ثابِتٌ إِلى زَميلِهِ ، وَقالَ :

« هَيّا اشْرَبْ و أَقْلِلْ مِنَ الشُّرْبِ ؛ فَإنَّها لَيْلَةُ مُطارَدَةٍ . »

قالَ « ابنُ بُرّاقٍ » : « ما يُدْريكَ ؟ لَقَدْ تَرَكْناهُمْ وَراءَنا ! »

فَقالَ « ثابِتٌ » : « وَاللهِ . . رَبِّ السَّماءِ وَالأَرْضِ ، إنّي لأَسْمَعُ خَفَقانَ قُلوبٍ لِرِجالٍ تَحْتَ قَدَمَيَّ ! »

فَقالَ « ابن برّاق » ساخِرًا : « هَذا خَفَقانُ قَلْبِكَ أَنْتَ ! »

فَقالَ « ثابِتٌ » : « وَاللهِ ما خَفَقَ قَلْبي قَطُّ ، وَلا كانَ خَفّاقًا عَنْ خَوْفٍ يَوْمًا ، وَأَنْتَ تَعْرِفُ ! »

وَأَلْصَقَ « ثابِتٌ » أُذُنَهُ بِالأَرْضِ ،

وَأَخَذَ يَتَسَمَّعُ ، ثُمَّ قالَ :



« وَرَبِّ السَّماءِ وَالأَرْضِ ، إِنّي لأَسْمَعُ خَفَقانًا لِقُلوبِ رِجالٍ بِالْفِعْلِ ! » فَقالَ « ابن بُرّاقَ » :

« إذًا سَأَجْذِبُ دَلْوًا ، وَأَشْرَبُ قَبْلَكَ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَشْرَبُ أَنْتَ وَنَلوذُ بِالْهَرَبِ . »

فَقالَ « ثابت » :

« اِسْمَعْ ما يَجِبُ أَنْ تَعْمَلَهُ :

إِنَّهُمْ سَيَتْرُكونَكَ ، لا يُهاجِمونَكَ ؛ إِذْ لَسْتَ أَنْتَ الْمَعْنِيُّ بِالْقَبْضِ عَلَيْهِ . إِنَّهُمْ يَقْصِدونَني أَنا ، فَإِذا قَبَضوا عَلَيَّ ، وَأَخَذوني سَأُناديكَ ، وَأَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ تَأْتِيَ مَعِيَ أَسيرًا مِثْلي .

« عِنْدَئِذٍ ، تَصَنَّعِ الجَرْيَ بِالْقُرْبِ مِنْهُمْ وَمِنّي ، ثُمَّ تَظاهَرْ بِالتَّعَبِ وَتَخَبَّطْ . . حَتّى إِذا طَمِعوا فيكَ وَأَرادوا الإِمْساكَ بِكَ - اصْطَدِمْ بي ، وَاقْطَعْ قَيْدي بِسُرْعَةٍ بِسِكّينٍ جَهِّزْها في يَدِكَ ، وَعِنْدَئِذٍ يَكونُ ما يَكونُ ! »

نَزَلَ « ابن برّاق » إِلى مَوْضِعِ الْبِئْرِ ، وَراحَ يَشْرَبُ ، وَكانَ رِجالُ « بُجَيْلَةَ » لا يَطْمَعونَ فيهِ فَلَمْ يَهْتَمَّ بِهِ أَحَدٌ وَتَرَكوهُ في الظَّلامِ ، يَرَوْنَهُ وَهُوَ لا يَراهُمْ ، وَلا يَحِسُّ بِوُجودِهِمْ .

ثُمَّ نَزَلَ « ثابت » لِيَشْرَبَ ، فَما كادَ يَجْذِبُ الدَّلْوَ ، حَتّى وَثَبوا عَلَيْهِ وَنَجَحوا في تَقْييدِ يَدَيْهِ بِحَبْلٍ غَليظٍ !

وَظَهَرَ « ابن برّاق » قَريبًا مِنْهُمْ ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَقْرَبوهُ ؛ لِأَنَّهُمْ لا يُريدونَهُ .

فَقالَ لَهُمْ « ثابتٌ » : « ابنُ بُرّاقٍ هَذا مِنْ أَكْثَرِ النّاسِ عُجْبًا بِنَفْسِهِ ، وَأَشَدِّهِمْ غُرورًا بِجَرْيِهِ . وَجَرْيُهُ عَجيبٌ غَريبٌ . إِذا طَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ تَأْخُذوهُ مَعي ، وَتَأْسِروهُ مِثْلي - فَسَوْفَ يَزْهو بِنَفْسِهِ مُخْتالاً ، إِلى حَدِّ أَنَّهُ سَيَنْطَلِقُ أَمامَكُمْ ، وَهُوَ واثِقٌ مِنْ نَفْسِهِ كُلَّ الثِّقَةِ ، إِلى حَدٍّ يَمْلأُ النَّفْسَ غَيْظًا وَحَنَقًا ! يَفْعَلُ هَذا وَهُوَ مُتَأَكِّدٌ - كَما يَتَصَوَّرُ - أَنَّ أَحَدًا لا يُمْكِنُهُ اللَّحاقُ بِهِ ، قاصِدًا إِشْعارَ مَنْ يُطارِدُهُ بِالْعَجْزِ التّامِّ ، ثُمَّ يَأْخُذُ في السُّخْرِيَةِ مِنْ فَشَلِهِ !»

وَواصَلَ « تَأَبَّطَ شَرًّا » قائِلاً : « إِنَّ لـ ‹‹ ابن بُرّاق ›› هَذا ثَلاثَ سُرْعاتٍ في الجَرْيِ : أَوَّلُها سُرْعَةٌ كَالرّيحِ ، والثّانِيَةُ كَالْفَرَسِ ، وَالثّالِثَةُ يَكْبو فيها وَيَتَخَبَّطُ وَيَسْقُطُ عَلى الأَرْضِ ، فَإِذا رَأَيْتُمْ مِنْهُ ذَلِكَ فَاقْبِضوا عَلَيْهِ وَخُذوهُ ؛ فَإِنّي أُحِبُّ أَنْ يَصيرَ في أَيْديكُمْ كَما صِرْتُ

أنا ، وَيَنالَ مِنْكُمْ ما أنالُهُ ؛ لأنَّهُ خالَفَني ، وَأفْسَدَ خُطَّتي !»

فَقالوا ، بَعْدَ تَفْكيرٍ : « إذًا نادِهِ !»

فَصاحَ « تأبَّطَ شَرًّا » : « أنْتَ ، يا ‹‹ ابنَ بُرّاقٍ ›› . . أنْتَ ، يا أخي ، في الشِّدَّةِ وَالرَّخاءِ ، لَقَدْ وَعَدَني القَوْمُ أن يَمُنّوا عَلَيَّ وَعَلَيْكَ ، فاتْرُكْ نَفْسَكَ وَكُنْ أسيرًا مَعي وَواسِني في المِحْنَةِ ، كَما كُنْتَ زَميلي في الحَياةِ الهَيِّنَةِ السَّهْلَةِ !»

فَضَحِكَ « ابنُ بُرّاقٍ » في سِرِّهِ ، وَأدْرَكَ أنَّ « ثابت » قَدْ نَجَحَ في غَزْوِ عُقولِ « بجيلة » !

فَصاحَ مِنْ بَعيدٍ : « مَهْلاً ، يا ثابتُ ! أيَتْرُكُ نَفْسَهُ لِلأسْرِ مَنْ عِنْدَهُ حُرِّيَّةٌ ، وَمَنْ عِنْدَهُ هَذِهِ السُّرْعَةُ في الجَرْيِ . »

أخَذَ يَجْري : انْطَلَقَ أوّلاً كالرّيحِ ، ثُمَّ ثانِيًا كالفَرَسِ ، وَفي الثّالِثَةِ أخَذَ يَكْبو وَيَتَخَبَّطُ ، وَيَقَعُ عَلى وَجْهِهِ !

فَصاحَ ثابِتٌ في رِجالِ « بُجَيْلَةَ » : « الآنَ . .

خُذوهُ . . خُذوهُ !»

فَانْطَلَقوا جَميعًا مِنْ وَرائِهِ ، وَابْتَعَدوا مَسافَةً عَنْ « ثابت » وَتَظاهَرَ « ابنُ بُرّاقٍ » بِأنَّهُ يَتَخَبَّطُ ، يَنْهَضُ وَسَرْعانَ ما يَسْقُطُ . . وَأثْناءَ ذَلِكَ اعْتَرَضَ طَريقَ « ثابت » وَفي لَمْحَةٍ مالَ عَلَيْهِ ، وَقَطَعَ قَيْدَهُ بِسِكّينِهِ ، ثُمَّ انْطَلَقا مَعًا مُسْرِعَيْنِ ، تارِكَيْنِ رِجالَ « بجيلة » يَضْرِبونَ كَفًّا بِكَفٍّ مِنْ شِدَّةِ الغَيْظِ وَالحَسْرَةِ ، وَهُمْ يُتَمْتِمونَ : « ضَحِكَ عَلَيْنا هَذانِ الشَّيْطانانِ !»

١٠– أبو كَبيرٍ يُدَبِّرُ خُطَّةً !

بَلَغَ « أبو كَبير » خَبَرُ حادِثَةِ « بُجَيْلَةَ » فَازْدادَ ارْتِعاشًا ، وَدَقَّ قَلْبُهُ غَضَبًا وَخَوْفًا ، وَأخَذَ يَمْشي كَئيبًا واجِمًا ، وَعَزَّ عَلَيْهِ النَّوْمُ . . وَصَمَّمَ عَلى قَتْلِ « تأبَّطَ شَرًّا » .

لَمْ يَكُنْ « أبو كبير » هَيّابًا ، وَلَمْ يَكُنْ جَبانًا ، بَلْ كانَ شُجاعًا فارِسًا ، وَإنَّما هُوَ يَتَرَدَّدُ في الفِعْلِ الخَطيرِ وَيَتَدَبَّرُ .

ثُمَّ هُوَ يَخْشى أَمْرَ هَذا الْوَلَدِ ، لأنَّهُ رَبيبُهُ ، وَلأنَّهُ يَعيشُ مَعَهُ ، وَيُساكِنُهُ في بَيْتٍ واحِدٍ .

وَما دامَتْ أُمُّهُ - كَما تَصَوَّرَ - قَدْ فَوَّضَتْهُ في أَمْرِهِ ، حينَ قالَتْ : « اِفْعَلْ ما تَراهُ صَوابًا » . . فَلِماذا يَتَأَخَّرُ كُلَّ هَذا التَّأْخيرِ ؟ وَلِماذا لا يَتَخَلَّصُ مِنْ شَرِّهِ ، وَيَنْجو بِنَفْسِهِ ، وَيُطيحُ بِهَذا الْكابوسِ ؟

وَدَبَّرَ خُطَّةً . وَفي الْيَوْمِ التّالي ، اِسْتَوْقَفَ « أبو كَبير » « ثابت » وَناداهُ سائِلاً : « أَلا تَوَدُّ سَماعي ، يا ثابِتُ ؟ »

فَلَمّا تَوَقَّفَ ثابِتٌ ، وَنَظَرَ إِلَيْهِ ، وَلَمْ يَرُدَّ ، قالَ « أبو كبير » : « هُناكَ جَماعَةٌ كانَتْ قَدْ هاجَمَتْنا وَاعْتَدَتْ عَلى حَيِّنا وَاسْتَوْلَتْ عَلى بَعْضِ مالِنا ، وَتَرَكَتْ لَنا إِهانَةً ، لَمْ تَمْحُها سُيوفُنا بَعْدُ ، و . . . »

فَقاطَعَهُ ثابِتٌ : « مَتى كانَ ذَلِكَ ؟ »

« كانَ ذَلِكَ قَبْلَ مَوْلِدِكَ ! »

كانَ ثابِتٌ يَعْلَمُ بِهَجَماتٍ سابِقَةٍ حَدَثَتْ بِالْفِعْلِ مِنْ أَعْداءٍ أَقْوِياءَ ، يَعيشونَ في الصَّحْراءِ ، لَكِنْ ما يَتَكَلَّمُ عَنْهُ « أبو كبير » الآنَ كانَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ مَجْهولاً !

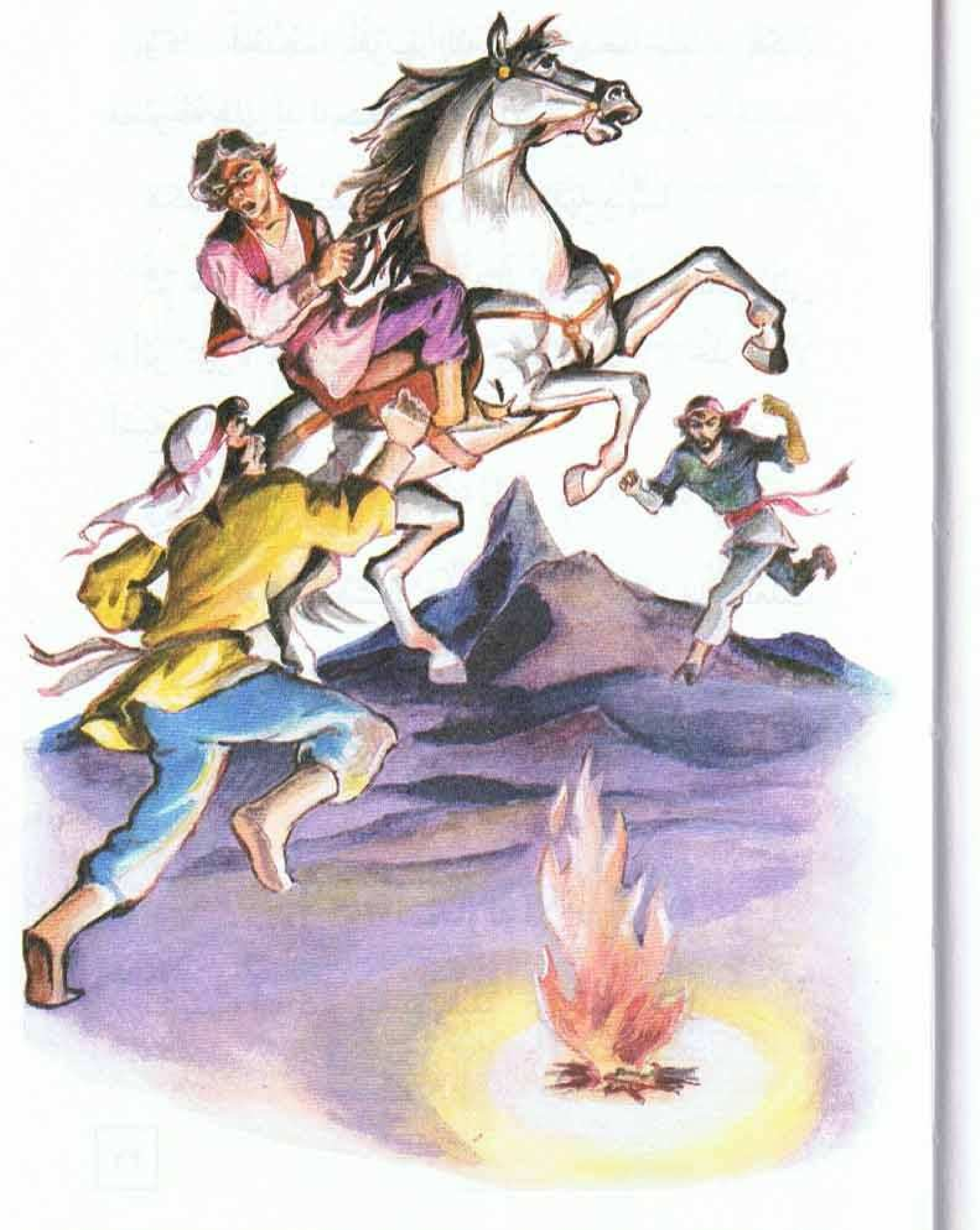
فَقالَ « ثابت » دونَ تَفْكيرٍ : « أَنا مُسْتَعِدٌّ ! »

فَقالَ « أبو كبير » : « سَتَكونُ مَعي ! »

فَقالَ ثابِتٌ ، وَ هُوَ يَضَعُ يَدَهُ في جَنْبِهِ : « وَسَيْفي مَعي ! » وَخَرَجا مَعًا .

كانَ في نِيَّةِ « أبو كبير » أَنْ يَتَّجِها إِلى جَماعَةٍ مِنْ عَرَبِ الْبادِيَةِ ، مَشْهورَةٍ بِشَراسَتِها ، وَهُوَ يَعْلَمُ خُطورَةَ الاقْتِرابِ مِنْها عِلْمًا يَقينِيًّا . وَتَعَمَّدَ « أبو كبير » أَلا يَحْمِلا مَعَهُما زادًا ، وَسارَ مَعَ « تَأَبَّطَ شَرًّا » يَوْمًا وَلَيْلَةً .

في الْيَوْمِ التّالي ظَنَّ « أبو كبير » أَنَّ الْفَتى قَدْ آلَمَهُ الجوعُ ، وَأَنَّهُ سَيَسْتَجيبُ لأَيِّ فِكْرَةٍ أَوْ نِداءٍ مِنْ أَجْلِ الطَّعامِ .



وَ في حُلْكَةِ الظَّلام ، في مُنْتَصَفِ اللَّيْلَةِ التّالِيَةِ ، جَنَح « أبو كبير » بالسَّيْرِ نَحْوَ نارٍ مُوقَدَةٍ تُشاهَدُ مِنْ بَعيد . وتَوَقَّفَ في مُنْتَصَفِ الطَّريقِ إلَيْها . كانَ يَعْلَمُ أنَّ هَذِهِ النّارَ قَدْ أوْقَدَتْها الجَماعَةُ المَقْصودَةُ .

وَقالَ « أبو كبير » لِـ « ثابت » : « سَأَكْمُنُ هُنا ، وَسِرْ أَنْتَ إلى تِلْكَ النّارِ ، والْتَمِسْ لَنا عِنْدَ أصْحابِها شَيْئًا نَأكُلُهُ !» فانْطَلَقَ « تأبَّط شَرًّا » ، وَفي لَحْظَةٍ كانَ قَدِ اخْتَفى بِفَرَسِهِ في الظَّلام . وَعِنْدَما اقْتَرَبَ مِنَ النّارِ لَمَحَ رَجُلَيْنِ ، كانا مِنْ أَشْرَسِ لُصوصِ الأَعْرابِ !

وَكانَ قَصْدُ « أبو كبير » أنْ يَفْتِكَ هَذانِ الشِّريرانِ بالْفَتى ، فَيَتَخَلَّصَ هُوَ مِنْهُ ، وَيَبْرَأَ مِنْ دَمِهِ أمامَ قَوْمِهِ ، وَأَمامَ أُمِّهِ !

فَلَمّا شاهَدَ اللِّصانِ « ثابت » يُقْبِلُ عَلَيْهِما بِحِصانِهِ ، كَإِقْبالِ صَخْرَةٍ تَهْبِطُ عَلَيْهِما مِنْ جَبَلٍ - وَثَبا عَلَيْهِ كَذِئْبَيْنِ ساغِبَيْنِ !

وَكانَ أَحَدُهُما أَقْرَبَ إِلَيْهِ – مِنْ صاحِبِهِ ، فَكانَ مَصْرَعُهُ عَلى يَدِ ثابِتٍ أَسْرَعَ مِنَ الآخَرِ !

هَكَذا – في لَحْظَةٍ – نَفَضَ ثابِتٌ يَدَيْهِ مِنْهُما .

ثُمَّ مالَ وَتَناوَلَ الخُبْزَ مِنْ نارِ القَتيلَيْنِ ، وَعادَ بِهِ إلى « أبو كبير » ، وَقَذَفَ بِهِ إِلَيْهِ ، وَهُوَ يَقولُ : « خُذْ . . لا أَشْبَعَ اللهُ لَكَ بَطْنًا ! »

وَكَيفَ يَأْكُلُ « أبو كبير » ؟

لَقَدْ سَأَلَهُ في دَهْشَةٍ : « بالله خَبِّرْني . . . ماذا فَعَلْتَ بِهَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ ، بِهَذِهِ السُّرْعَةِ ؟ »

فَقالَ ثابِتٌ بِسُخْرِيَةٍ : « اِذْهَبْ ، فَاسْأَلْهُما ! »

١١– الْمُحاوَلَةُ الأخيرَةُ

لَمْ يَنَمْ « أبو كبير » هَذِهِ اللَّيْلَةَ . وَكَيْفَ يَنامُ ؟

وَفي اللَّيْلَةِ نَفْسِها ، قادَ « أبو كبير » « ثابت » إلى جَماعَةٍ أُخْرى ، كانَتْ مِنْ أَعْداءِ حَيِّهِما ، فَأَغارا عَلَيْها ، وَأَخَذا بَعْضَ الإِبِلِ مِنْها .

كانَ قَدِ انْقَضى جُزْءٌ كَبيرٌ مِنَ اللَّيْلِ ، وَقَدْ حَلَّ بِهِما التَّعَبُ ، فَنَصَبا خَيْمَةً يَسْتَريحانِ فيها ، حَتّى طُلوعِ النَّهارِ .

قَبْلَ أَنْ يَرْكَنا لِلنَّومِ ، قالَ « أبو كبير » لِـ « ثابت » :

« اِخْتَرْ . . هَلْ تَنامُ أَنْتَ أَوَّلاً ، وَأَحْرُسُ أَنا ؟ »

فَقال ثابِتٌ : « اِخْتَرْ أَنْتَ . »

فاخْتارَ « أبو كبير » أَنْ يَحْرُسَ أَوَّلاً ، وَينامَ « ثابت » وَهَكَذا رَقَدَ لِيَأْخُذَ نَصيبَهُ مِنَ النَّوْمِ .

وَتَأَمَّلَهُ « أبو كبير » وَهُوَ نائِمٌ ، وَأَدْهَشَهُ أَنَّ لَهُ هَيْبَةً في نَوْمِهِ لا تَقِلُّ عَنْ هَيْبَتِهِ في يَقْظَتِهِ ! وَتَذَكَّرَ رُدودَهُ عَلَيْهِ الجافَّةَ وَالسَّريعَةَ ، فَفارَ الغَيْظُ في قَلْبِهِ ، كَما غاظَهُ أَنْ

يَرى عُودَهُ الفارِعَ ، وَعَضَلاتِهِ المَفْتولَةَ ، وَنَظَراتِهِ الثّاقِبَةَ ، بِرَغْمِ غَمْضِ جَفْنَيْهِ ! ثُمَّ جُرْأَتَهُ النّادِرَةَ وَشَبابَهُ الَّذي يُحْسَدُ عَلَيْهِ !

بَعْدَ فَتْرَةٍ ظَنَّ « أبو كَبير » أَنَّ النُّعاسَ قَدِ اسْتَوْلى عَلى الْفَتى ، فَهَمَسَ لِنَفْسِهِ : « الآنَ ، هِيَ الْفُرْصَةُ ! »

لَكِنْ لِيُجَرِّبَ أَوَّلاً .

تَناوَلَ حَصاةً صَغيرَةً ، وَبِرِفْقٍ شَديدٍ ، أَلْقى بِها قَريبًا مِنْ « ثابت » . كانَ الْقَصْدُ أَنْ يَخْتَبِرَ دَرَجَةَ إِحْساسِهِ .

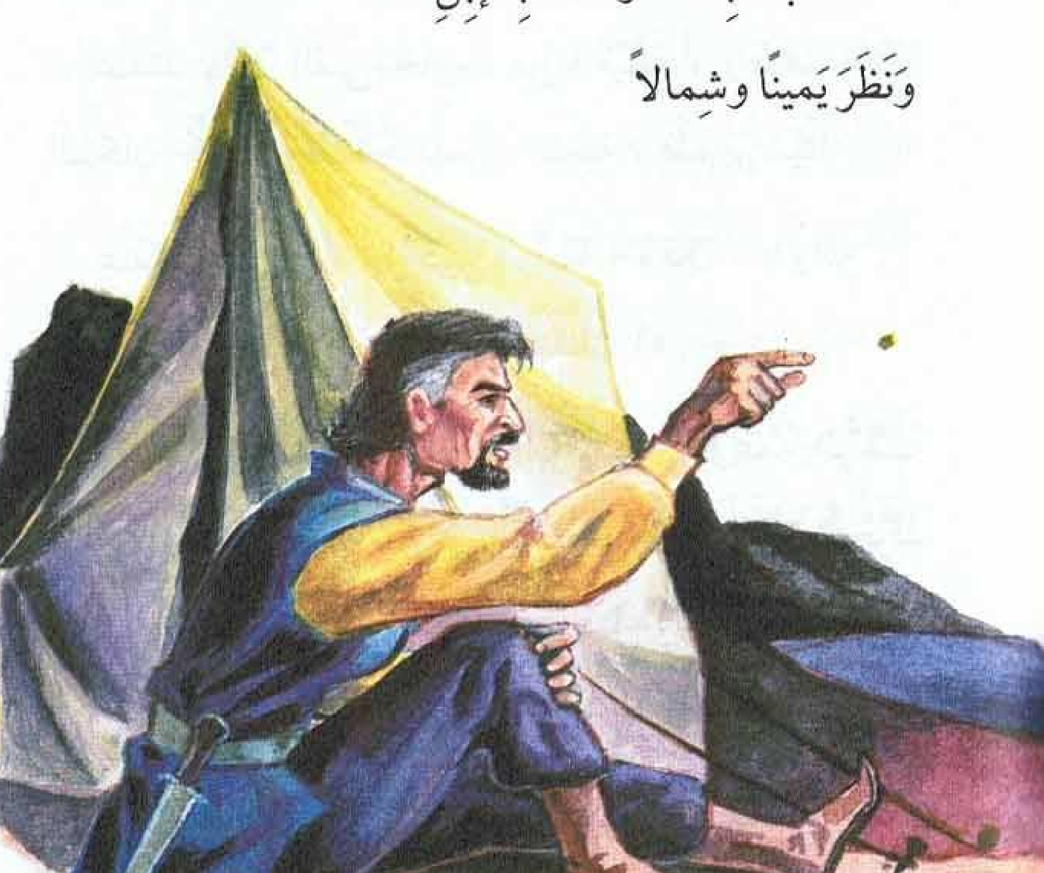
وَهَبَّ ثابِتٌ واقِفًا مُنْتَصِبًا عَلى قَدَمَيْهِ ، فَبَدا في الظَّلامِ كَمارِدٍ جَبّارٍ !



سَأَلَ : « ما هَذا الَّذي سَمِعْتُ ؟ »

فَقالَ « أبو كبير » كَذِبًا : « ما أَدْري وَاللهِ . . . لَعَلَّ الإِبِلَ تَتَحَرَّكُ ، فَحَرَّكَتِ الحَصى تَحْتَ أَخْفافِها ! »

فَذَهَبَ ثابِتٌ ، وَطافَ بِالإِبِلِ ، وَنَظَرَ يَمينًا وَشِمالاً



فَلَمْ يَرَ شَيْئًا . فَعادَ فَأَلْقى نَظْرَةً فاحِصَةً عَلَى وَجْهِ « أبو كبير » ثُمَّ رَقَدَ وَنامَ .

بَعْدَ فَتْرَةٍ أخرى تَناوَلَ « أبو كبير » حَصاةً ثانِيَةً ، لَكِنَّها أصْغَرُ ، وَرَمى بِها قَريبًا مِنْ « ثابت » .

عِنْدَئِذٍ وَثَبَ الْفَتى خارِجًا مِنَ الخَيْمَةِ ، وَطافَ حَوْلَ الْمَكانِ كُلِّهِ ، وَتَفَقَّدَهُ لِلْمَرَّةِ الثّانِيَةِ ، فَلَمْ يَرَ شَيْئًا .

عِنْدَئِذٍ عادَ إلى « أبو كبير » رَأْسًا ، وَقالَ : « واللهِ . . لَوْ عُدْتُ أَسْمَعُ ما سَمِعْتُ ، لأَقْتُلَنَّكَ ! »

وَاسْتَوْلى الْيَأْسُ عَلى « أبو كبير » وَعَمَّهُ الرُّعْبُ وَالْفَزَعُ ، وَباتَ لَيْلَتَهُ يَحْرُسُ الْغُلامَ ؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ تَتَحَرَّكَ الإبِلُ ، وَتُصْدِرَ صَوْتًا يُسْلِمُهُ إلى الْقَتْلِ !

عِنْدَما أَصْبَحَ الصَّباحُ ، كانَ « أبو كبير » في شِبْهِ انْهِيارٍ مِنَ السَّهَرِ وَالتَّفْكيرِ . . وَمِمّا ضاعَفَ مِنْ عَذابِهِ ، ضَياعُ الْفُرْصَةِ مِنْهُ ، إلى الأَبَدِ !

١٢ – الحَياةُ مَعَ السَّلامِ !

لَقَدْ تَبَيَّنَ لِـ « أبو كبير » بِيَقينٍ أَنَّ رَبيبَهُ هَذا شَيْطانٌ داهِيَةٌ ، وَعِفْريتٌ لا يُغْلَبُ ! وَقَرَّرَ أَمْرًا .

عِنْدَما عادا إلى الحَيِّ ، كانَ « أبو كبير » قَدْ تَوَصَّلَ إلى فِكْرَةٍ ؛ فَقَدْ أَخَذَ عَلى نَفْسِهِ عَهْدًا ، أَلا يَدْخُلَ عَلى امْرَأَتِهِ « أُمِّ ثابتٍ » حَتّى تَرْضى عَنْهُ نَفْسُ « تَأَبَّطَ شَرًّا » أَوَّلاً ؛ كَيْ يَأْمَنَ مِنْ شَرِّهِ ، وَيَطْمَئِنَّ عَلى حَياتِهِ !

هَكَذا صَمَّمَ عَلى أَنْ يَعيشَ مُسالِمًا مَعَ هذا الْفَتى الفارِسِ النّابِغَةِ ، وَأَنْ يَعْقِدَ مَعَهُ صَداقَةً وَصُلْحًا ، مُشارِكًا إيّاهُ في حَياةٍ يَسودُها الوِئامُ وَالسَّلامُ ، حَياةٍ خالِيَةٍ مِنَ الْكَراهِيَةِ والخِصامِ .

وَتَحَقَّقَ لَهُ هَذا الْهَدَفُ . وَصارَ « أبو كبير » يَمْدَحُ الْفَتى ، وَيَقولُ فيه شِعْرًا ! وَلَمْ يَنْسَ أَنْ يَمْدَحَ « زَهْرَتَهُ » الْمُطْرِبَةَ ، النَّضِرَةَ ، وَأَنْ يُثْنِيَ عَلى غولَتِهِ الْخَشِنَةِ الْخَطِرَةِ !

شَجَرَةٌ مُؤْمِنَةٌ

« هَذِهِ الشَّجَرَةُ كَبُرَتْ وَشاخَتْ ، اِصْفَرَّتْ أَوْراقُها وَاحْتَرَقَتْ ، وَانْحَنى جِذْعُها ، وَلَمْ تَعُدْ جُذورُها قادِرَةً عَلى أَنْ تَمْتَصَّ الْمِياهَ الجَوْفِيَّةَ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ . أَخْشى أَنْ تَتَهاوى وَتَسْقُطَ فَوْقَ رُؤوسِ الْمُصَلّينَ . أرى أَنْ نُسارِعَ بِقَطْعِها ، وَالتَّصَرُّفِ في خَشَبِها . »

هَذا ما قالَهُ إمامُ الْمَسْجِدِ لِلْمُصَلّينَ ، عَقِبَ صَلاةِ الْعَصْرِ ثُمَّ راحَ يَنْظُرُ في اتِّجاهِ الشَّجَرَةِ الْكَبيرَةِ الْقائِمَةِ في فِناءِ الْمَسْجِدِ .

قالَ ذَلِكَ ، وَلَعَلَّهُ لَمْ يُدْرِكْ حَجْمَ الأَلَمِ الَّذي سَرى في قُلوبِ الْمُصَلّينَ حينَ واجَهوهُ بِالدَّهْشَةِ .

فَكَمْ كانَتْ هَذِهِ الشَّجَرَةُ عَزيزَةً عَلَيْهِمْ وَغالِيَةً .

وَسَمِعَتِ الشَّجَرَةُ قَوْلَ الإمامِ ، وَلاحَظَتْ جَزَعَ الْمُصَلّينَ ، وَكادَتْ مِنَ الخَوْفِ تَنْهارُ وَتَبْكي ، وَتَذْرِفُ دُموعًا مِنْ خَشَبٍ ، غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لائِقًا بِشَجَرَةٍ كَبيرَةٍ عُرِفَ عَنْها أَنَّها كَريمَةٌ شُجاعَةٌ ؛ فَتَماسَكَتْ .

وفي اللَّيْلَةِ نَفْسِها ، وبِمُجَرَّدِ أَنْ أَوى الإمامُ إلى فِراشِهِ ، وَراحَ في النَّوْمِ ، حَتّى ظَهَرَتِ الشَّجَرَةُ لَهُ في حُلْمٍ .

قالَتْ لَهُ : « أَرْجوكَ ، يا شَيْخَنا ، أَلا تَقْذِفَ بِمُؤْمِنَةٍ في النّارِ ! اِقْطَعْني مِنْ جُذوري ، ما دُمْتَ تَرى ذَلِكَ ، لَكِنْ لا تَجْعَلْ مِنْ جِسْمي طَعامًا لِلنّارِ . لَقَدْ تَعَلَّمْتُ الْكَثيرَ وَأَنا في رِحابِ هَذا الْمَسْجِدِ ، وَسَمِعْتُ الْكَثيرَ مِنَ الأَحاديثِ ، وَمِنْ تَفْسيرِ الآياتِ ، وَتَثَقَّفْتُ كَثيرًا ، وَأُريدُ مُواصَلَةَ الحَياةِ مَعَ الْمُصَلّينَ وَالنّاسِ الَّذينَ أَحْبَبْتُهُمْ ، وَأُريدُ أَنْ أُعْطِيَ كَما أَعْطَيْتُ طَوالَ عُمْري . »

قالَ الإمامُ : « نَحْنُ لَنْ نَنْسى أَفْضالَكِ ، أَيَّتُها الشَّجَرَةُ ، لَنْ نَنْسى كَرَمَكِ عَلَيْنا نَحْنُ الْبَشَرَ ، وَكَرَمَكِ

حتّى عَلى الْعَصافيرِ وَالطُّيورِ الَّتي تَأْتي وَتَسْكُنُ قِمَّةَ رَأسِكِ في الْمَساءِ . . . أَسْعَدَني كَلامُكِ أَيَّتُها الشَّجَرَةُ عَنْ ثَقافَتِكِ وَعَنْ عِلْمِكِ ، وَعَن اسْتِفادَتِكِ مِنْ وُجودِكِ بَيْنَ الْمُصَلّينَ وَالْواعِظينَ . وَأَنْتِ تَقِفينَ فَوْقَ رُؤوسِهِمْ في فِناءِ الْمَسْجِدِ ، ثُمَّ وَ أَنْتِ تَمُدّينَ إِلَيْهِمْ فُروعَكِ وَأَوْراقَكِ ، وَتُقَدّمينَ لَهُمْ ناعِمَ الظِّلِّ ، وَجَمالَ الْخُضْرَةِ ، وَطيِّبَ الرّائِحَةِ ، والْهَواءَ النَّقِيَّ ، الْمُحَمَّلَ بالأُكْسُجين .

« لَقَدْ ظَلِلْتِ تُعْطينَ كُلَّ هَذِهِ السِّنينَ بِكَرَمٍ لا يُنْكَرُ ، وَبِسَخاءٍ لا يُجْحَدُ ، وَلا نَسْتَطيعُ مُكافَأَتَهُ بِشُكْرٍ .

« لَكِنْ أَيَّتُها الشَّجَرَةُ الْعَزيزَةُ كَيْفَ يُمْكِنُكِ مُواصَلَةَ الحَياةِ وَالْعَطاءِ بَعْدَ جَفافِ جُذورِكِ ، وَتَيَبُّسِ فُروعِكِ ، وَذُبولِ أَوْراقِكِ ، أَيْ بَعْدَ مَوْتِكِ ؟

« لِماذا تَخافينَ النّارَ ما دامَ حَرْقُ خَشَبِكِ يَعودُ بِالْفائِدَةِ عَلى النّاسِ الَّذينَ تُحِبّينَهُمْ - خاصَّةً - في الأَيّامِ الْبارِدَةِ مِنَ الشِّتاءِ ؟»

قالَتِ الشَّجَرَةُ : « هَلْ حَدَثَ لي ما تَقولُ حَقّا ، يا شَيْخَنا ؟

« أَنا لَمْ أَمُتْ بَعْدُ ، يا شَيْخُ ! صَحيحٌ أَنا شَجَرَةٌ عَجوزٌ ، لَكِنّي لَمْ أَمُتْ بَعْدُ ، وَ هَأَنَذا أَتَكَلَّمُ مَعَكَ في الحُلْمِ وَأُحاوِرُكَ في الْمَنامِ !

« حَقّا أَنا أَعيشُ فَصْلَ الخَريفِ ، وَ هُوَ فَصْلٌ كَما تَعْلَمُ ، تَجِفُّ فيهِ أَوْراقُ الأَشْجارِ ، وَتَسْقُطُ مُتَهاوِيَةً ، مَعَ حَرَكَةِ الرِّياحِ ، وَتَتَعَرّى الْفروعُ ، وَيَظُنُّ مَنْ يُشاهِدُني أَنَّني مِتُّ أَوْ في سَبيلي إِلى ذَلِكَ ، لَكِنَّني لا أُريدُ أَنْ أَموتَ ، يا شَيْخُ . . . هَكَذا بِصَراحَةٍ !»

أَبْدى الشَّيْخُ دَهْشَتَهُ، وَقالَ : « لَمْ أَسْمَعْ مُؤْمِنًا مِنْ قَبْلُ يَطْلُبُ الخُلودَ لِنَفْسِهِ ، وَيَرْفُضُ الْمَوْتَ ! أَرْجوكِ أَيَّتُها الشَّجَرَةُ الْعَزيزَةُ ، فَسِّري لي ما تَقْصِدينَ بِقَوْلِكِ : (لا أُريدُ أَنْ أَموتَ) . »

قالَتِ الشَّجَرَةُ : « لا تَفْهَمْني خَطَأً ، يا شَيْخَنا ، وَأَنا شَجَرَةٌ مُؤْمِنَةٌ مُتَعَلِّمَةٌ ! قَصَدْتُ بِقَوْلي هَذا أَنْ تَزرَعوا أَشْجارًا أُخْرى مِنْ نَسْلي ، أَنْ تَغْرِسوا فَسائِلَ مِنْ أَصْلي ، أَنْ تَضَعوا بُذورًا مِنْ ثِماري في الأَرْضِ .

« اِغْرِسوها حَوْلَ الْمَسْجِدِ ، لِتُخْرِجَ لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ أَشْجارًا مِثْلي ، لِتُعْطِيَ نَفْسَ رائِحَةِ أَزْهاري ، وَنَفْسَ كَثافَةِ أَوْراقي ، وَنَفْسَ ظِلالي وَأَخْشابي ، وَلِتَسْمَعوا نَفْسَ التَّسابيحِ الَّتي تُطْلِقُها عَصافيري ، تِلْكَ الَّتي تَأْتي وَتَسْكُنُني في الْمَساءِ ؛ لِتَنْطَلِقَ إِلى رِزْقِها في الْبُكورِ .

« وَإِذا ما قَطَعْتَني ، يا سَيِّدي الشَّيْخَ ، فَاجْعَلْ مِنْ خَشَبي أَبْوابًا وَنَوافِذَ ، وَاجْعَلْ مِنّي أَدْراجًا وَمَقاعِدَ يَجْلِسُ عَلَيْها طُلّابُ الْعِلْمِ .

« اِصْنَعوا مِنْ جَسَدي مَكْتَباتٍ وَمَكاتِبَ ؛ لِيَقْرَأَ وَيَكْتُبَ عَلَيْها الْمُعَلِّمونَ وَطالِبو الْعِلْمِ . إِنَّ في هَذا عَظيمَ سَعادَتي ، إِنَّ في هذا حَياتي بَعْدَ مَوْتي .

« هَذا ما قَصَدْتُ ، يا سَيِّدي . .

« أَمّا إِشْعالُ النّارِ وَما فيه مِنْ تَدْفِئَةٍ لِلنّاسِ في الشِّتاءِ الْبارِدِ – فَهَذا يُمْكِنُ مِنْ حَرْقِ الأَشْياءِ الأُخْرى كَالْحَطَبِ وَالأَعْشابِ الْجافَّةِ ، وَلَيْسَ بِحَرْقِ أَخْشابٍ نافِعَةٍ مِثْلِ خَشَبي ! »

وَفي اللَّيْلَةِ نَفْسِها ، الَّتي وَقَفَتْ فيها الشَّجَرَةُ ، وَتَحاوَرَتْ مَعَ إِمامِ الْمَسْجِدِ فِي الحُلْمِ – هَبَّتْ ريحٌ عاصِفٌ عَنيفَةٌ ، أَسْقَطَتِ الشَّجَرَةَ وَأَرْقَدَتْها عَلى أَرْضِ الْفِناءِ ، وَتَمَدَّدَتْ وَسْطَ أَوْراقِها الصَّفْراءِ الَّتي تَساقَطَتْ قَبْلَها .

وَبَعْدَ صَلاةِ الْفَجْرِ ، اِسْتَمَعَ الْمُصَلّونَ إِلى ما رَواهُ إِمامُهُمْ عَنْ حُلْمِهِ ، وَنَهَضوا جَميعًا وَأَلْقَوْا نَظْرَةً عَلى جِسْمِ الشَّجَرَةِ الْمُمَدَّدِ ، وَهَزّوا رُؤوسَهُمْ أَسَفًا وَحُزْنًا .

قالَ الإِمامُ بِصَوْتٍ مَسْموعٍ :

« لا تَأَسَفوا . . سَوْفَ يَكونُ لِهَذِهِ الشَّجَرَةِ ما أَرادَتْ ، إنْ شاءَ اللهُ . . وَلَسَوْفَ تَكونُ مَعَنا ؛ لِتُواصِلَ حَياتَها الْكَرِيمَةَ – لِتُعْطِيَنا مِنْ خَيْرِها ، شَأْن الأَعْمالِ الْعَظيمَةِ ، في هَذِهِ الدُّنْيا . »

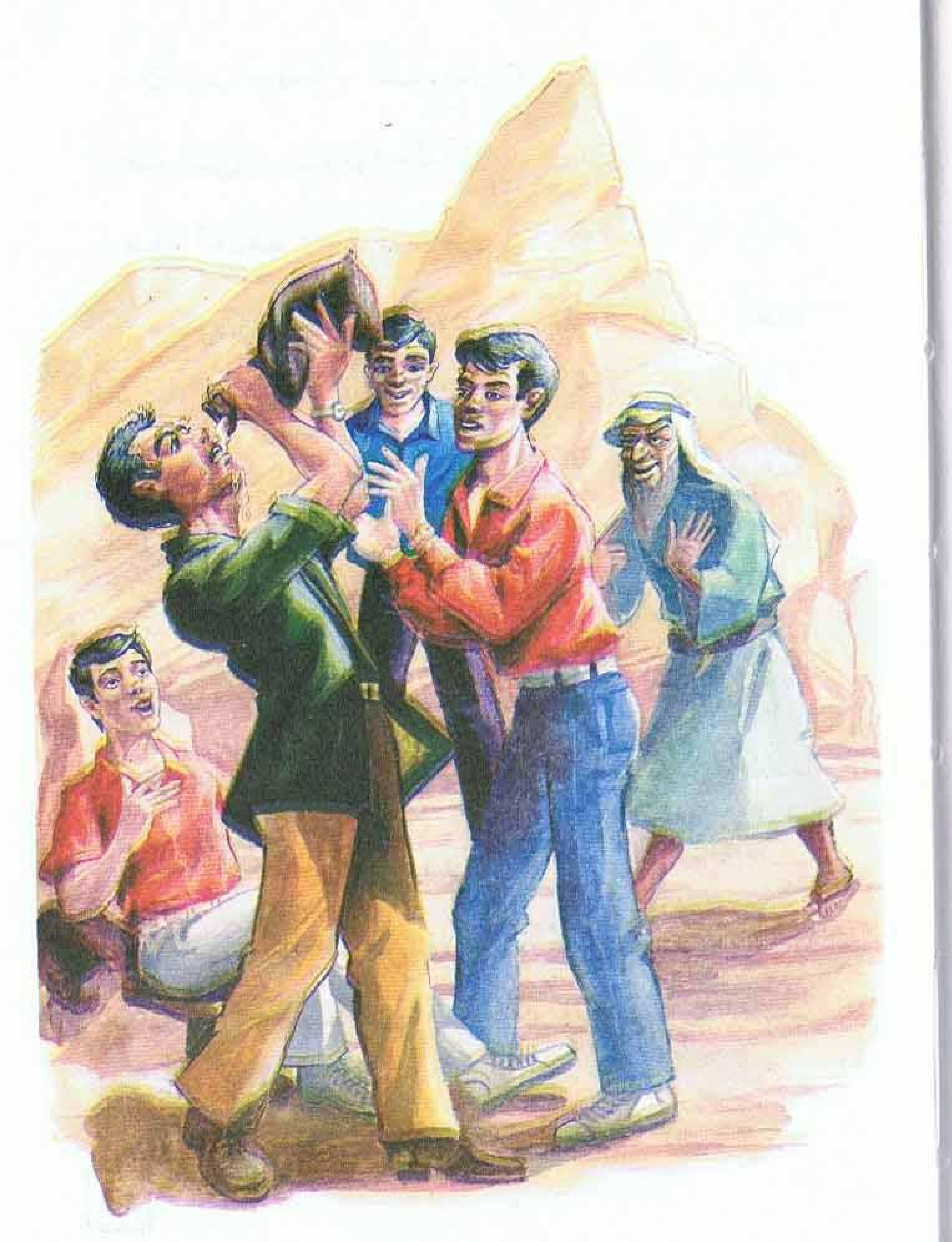
عاقِبَةُ الطَّمَع

خَرَجَ بَعْضُ الشَّبابِ في رِحْلَةٍ إلى الصَّحْراءِ . .

اِنْطَلَقوا بِسَيّارَتِهِمْ بَعْدَ صَلاةِ الْفَجْرِ . وَعِنْدَما بَلَغوا نِهايَةَ حُدودِ مَدينَتِهِمْ ، مُسْتَقْبِلينَ بِدايَةَ الصَّحْراءِ ، غَمَرَتْهُمْ نَسائِمُ الْهَواءِ النَّقِيِّ ، وَأَجْواءُ الأَماكِنِ النَّظيفَةِ الْمُنْعِشَةِ ، وَأَسْعَدَهُمْ أَكْثَرَ خَيالاتُ الرِّمالِ الْمُمْتَدَّةِ إلى ما لا نِهايَةَ .

وَفي قَلْبِ الصَّحْراءِ ، اِنْطَلَقوا هُنا وَهُناك ، بِالسَّيّارَةِ حينًا ، وَعَلى أَقْدامِهِمْ حينًا آخَرَ ، صَعِدوا تِلالاً ، وَهَبَطوا وُدْيانًا ، وَتَسابَقوا وَجَرَوا وَتَعَلَّموا وَأَكَلوا وَشَرِبوا ثُمَّ وَقَعَ لَهُمْ حادِثٌ مُثيرٌ .

اِكْتَشَفوا قُرْبَ الْعَصْرِ ، أَنَّ زادَهُمْ مِنَ الْماءِ قَدْ نَفِدَ ،



وَأَنَّهُمْ لا يَزالونَ في قَلْبِ الصَّحْراءِ ، وَقَدِ اسْتَوْلى عَلَيْهِمْ عَطَشٌ شَديدٌ !

اتَّجَهوا هُنا وَهُناكَ بَحْثًا عَنْ ماءٍ لِلشُّرْبِ ، وَكُلَّما بَحَثوا زادَتْهُمْ حَرارَةُ الشَّمْسِ عَطَشًا ، وَكادوا مِنَ الْيَأْسِ يَفْقِدونَ ما حَصَلوا عَلَيْهِ مِنْ مُتْعَةِ الرِّحْلَةِ ، بَلْ كادوا يَفْقِدونَ الأَمَلَ في عَوْدَتِهِم سالِمينَ !

وَأَخيرًا ، لَمَحوا أَعْرابِيًّا يَقِفُ أَمامَ خَيْمَةٍ ، وَسْطَ مَجْموعَةٍ مِنَ النَّخيلِ .

أَسْرَعوا إِلَيْهِ . . وَطَلَبوا مِنْهُ الْماءَ بِأَيِّ ثَمَنٍ !

نَظَرَ إِلَيْهِمُ الأَعْرابِيُّ مُتَفَحِّصًا ، ثُمَّ هَزَّ رَأْسَهُ بِما يَعْني تَلْبِيَتَهُ لِطَلَبِهِمْ ؛ فَانْتَعَشَ الْفَرَحُ مِنْ جَديدٍ في صُدورِهِمْ .

غَيْرَ أَنَّهُمْ لَمْ يُدْرِكوا طَلَبَهُ الْغَريبَ عِنْدَما قَدَّمَ لَهُمُ الأَعْرابِيُّ قِرْبَةً مُمْتَلِئَةً بِالْماءِ ، وَيَبْدو أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَمِعوا إِلَيْهِ جَيِّدًا في غَمْرَةِ نَشْوَتِهِم بِالْماءِ وَانْشِغالِهِم بِتَداوُلِهِ فيما بَيْنَهُمْ ؛ لِيَشْرَبوا .

« مَطْلوبٌ – فَقَطْ – أَلْفُ دينارٍ !»

هَذِهِ الْمَرَّةُ ، اسْتَمِعوا جَيِّدًا !

صاحَ أَحَدُهُمْ :

« مَعْقولٌ ! أَلْفُ دينارٍ ، ثَمَنًا لِقِرْبَةِ ماءٍ ، أَخانا الْكَريمَ ، حَرامٌ عَلَيْكَ !»

« نَعَمْ . . أَلْفُ دينارٍ كامِلَةٍ ، لا تَنْقُصُ دِرْهَمًا واحِدًا . »

وَتَبادَلوا النَّظَراتِ ، وَعَدَمَ التَّصْديقِ ، ثُمَّ شَمِلَتْهُمُ الْحَيْرَةُ وَالارْتِباكُ .

« أَلْفُ دينارٍ ، يا رَجُلُ ، يا كَريمُ ؟»

« نَعَمْ أَلْفُ دينارٍ كامِلَةٍ ، وَإِلا . . !»

وَلَمَحوا أَبْناءَ الرَّجُلِ الأَقْوِياءَ يُطِلّونَ عَلَيْهِمْ قُرْبَ خَيْمَتِهِمْ . بَعْضُهُمْ كانَ مُسَلَّحًا ، وَبَعْضُهُمْ بَدا مُتَأَهِّبًا لِلتَّدَخُّلِ عِنْدَ اللُّزومِ !

وَفَهِموا أَنَّهُ لا مَفَرَّ مِنَ الدَّفْعِ !

نَظَرَ كُلٌّ مِنْهُمْ إِلى الآخَرِ ، وَتَمْتَموا بِكَلِماتٍ ، ثُمَّ وَضَعَ كُلٌّ واحِدٍ يَدَهُ في جَيْبِهِ ، وَأَخْرَجَ كُلَّ ما مَعَهُ مِنْ نُقودٍ !

لَكِنْ لَمْ يَكْتَمِلْ مَبْلَغُ الأَلْفِ . .

وَأَصَرَّ الأَعْرابِيُّ عَلى أَنْ يُدْفَعَ الْمَبْلَغُ كامِلاً ، وَأَثْناءَ ذَلِكَ كانَ يَتَطَلَّعُ إِلى مَلابِسِهِمُ الثَّمينَةِ وَإِلى ساعاتِهِمْ ، وَسَيّاراتِهِمْ !

وَفَهِموا . . وَراحَ كُلٌّ يَخْلَعُ ساعَةَ يَدِهِ ؛ لِيُقَدِّموا السّاعاتِ الْمُتَجَمِّعَةَ مَعَ الْمَبْلَغِ الْمُتَجَمِّعِ . وَأَخَذَ الأَعْرابِيُّ ساعاتِهِمْ وَنُقودَهَمْ ، ثُمَّ قالَ لَهُمْ :

« هَذِهِ الْقِرْبَةُ لَكُمْ !»

تَوَجَّهَ إِلَيْهِ أَحَدُهُمْ ، بَعْدَ أَنْ فَكَّرَ قَليلاً ، ثُمَّ قالَ :

« إِذًا ، أَكْمِلْ مَعْروفَكَ وَدُلَّنا عَلى الطَّريقِ العامِّ .

لَقَدْ تُهْنا في الصَّحْراءِ !»

كانوا يَعْرِفونَ الطَّريقَ ، لَكِنَّهُمْ تَظاهَروا بِعَدَمِ الْمَعْرِفَةِ .

وَرَكِبَ مَعَهُمْ سَيّارَتَهُمْ ؛ لِيَدُلَّهُمْ ، وَكانَ الْمَفْروضُ أنْ يَنْزِلَ حالَ وُصولِهِمُ الطَّريقَ ، لَكِنَّهُ انْشَغَلَ بِأَحاديثِهِمْ مَعَهُ ، وَبِأَكْلِ الحَلْوى الَّتي قُدِّمَتْ لَهُ بِسَخاءٍ مِمّا أَنْساهُ النُّزولَ ، وَمِمّا جَعَلَهُ يَبْتَعِدُ مَسافاتٍ بَعيدَةً عَنْ مَوْطِنِهِ في الصَّحْراءِ !

ثُمَّ شَعَرَ الأَعْرابِيُّ بِاشْتِعالِ جَوْفِهِ مِنَ الْعَطَشِ الشَّديدِ ، وَأَنَّ طاقَةَ الحَلْوى قَدْ فَعَلَتْ في جِسْمِهِ فِعْلَها ، وَكَأَنَّ قِطْعَةً مِنَ الحَلْوى اِنْحَشَرَتْ في حَلْقِهِ ، وَكادَتْ تَكْتُمُ أَنْفاسَهُ ! فَأَشارَ بِيَدِهِ إلى الْقِرْبَةِ ، يَطْلُبُ النَّجْدَةَ !

أَوْشَكَ أَحَدُهُمْ أَنْ يُقَدِّمَ لَهُ الْقِرْبَةَ ، لَكِنَّ أَعْقَلَهُمْ أَشارَ إِلَيْهِ بِيَدِهِ : «اِنْتَظِرْ . .»

وَتَوَجَّهَ لِلأَعْرابِيِّ .

« لا مانِعَ أَبَدًا . . لَكَ مِنّا شَرْبَةُ ماءٍ . . وَلَنا مِنْكَ أَلْفُ

دينارٍ ثَمَنًا لَها !»

أَدْرَكَ الأَعْرابِيُّ أَنَّ الحالَ قَدْ تَغَيَّرَتْ ضِدَّهُ ، وَأَنَّ مَوْقِفَهُ مِنْهُمْ قَدِ ارْتَدَّ إِلَيْهِ بِالطَّريقَةِ نَفْسِها ، وَ وَجَدَ سَيّارَتَهُمْ الْمُسْرِعَةَ الآنَ بِالْقُرْبِ مِنْ مَدينَتِهِمْ ، وَتَكادُ تَصِلُ إلى دِيارِهِمْ ؛ في حينِ أَنَّهُ قَدِ ابْتَعَدَ عَنْ أَبْنائِهِ وَدِيارِهِ . ثُمَّ هُمْ - الآنَ - كَثْرَةٌ وَهُوَ قِلَّةٌ ! وَإِذًا فَالدَّفْعُ أَفْضَلُ حَلٍّ لَهُ !

دونَ تَفْكيرٍ طَويلٍ أَوْ قَصيرٍ ، رَضَخَ الأَعْرابِيُّ صاغِرًا ، وَأَعادَ ما أَخَذَهُ مِنْ ساعاتٍ وَنُقودٍ ثَمَنًا لِقِرْبَةِ ماءٍ !

وَأَوْقَفَ الشَّبابُ سَيّارَتَهُمْ ، وَأَنْزَلوا الأَعْرابِيَّ ؛ لِكَيْ يَبْدَأَ طَريقَ عَوْدَتِهِ مُتَّجِهًا إِلى صَحْرائِهِ !

وَانْطَلَقَ الشَّبابُ ، إِلى بُيوتِهِمْ ضاحِكينَ ، وَقَدْ سَعِدوا بِرِحْلَةٍ وَبِتَجْرِبَةٍ وَبِقِرْبَةٍ مُمْتَلِئَةٍ بِالْمِياهِ ، دونَ أَنْ يَخْسَروا ثَمَنًا لَها دِرْهَمًا واحِدًا ، في حينِ لَمْ يَفُزِ الأَعْرابِيُّ إِلا بِجَزاءِ ما أَظْهَرَ مِنْ جَشَعِ الطَّماعِ وَاسْتِغْلالِهِ !

قُوَّةُ الْمُلاحَظَةِ

كانَ لِهارونَ الرَّشيدِ ابنان من زَوْجَتَيْنِ ، كانَ أَحَدُهُما فَتًى مُتَواضِعًا، مُحِبًّا لِلْعِلْمِ، ولِلْخَيْرِ. يُحِبُّ مُجالَسَةَ العُلَماءِ، ومُجالَسَةَ الفُقَراءِ، عَلى حَدٍّ سَواءٍ. فَكانَ إذا جالَسَ العامَّةَ مِنْ قَوْمِهِ، لا يُفاخِرُ بِأَنَّ أَباهُ هُوَ هارونُ الرَّشيدُ، خَليفَةُ كُلِّ الْمُسْلِمينَ.

وكانَ الفَتى قَدْ عادَ لِتَوِّهِ مِنَ الصَّحْراءِ، فَتَزَيَّنَ قَصْرُ الْخَليفَةِ في بَغْدادَ، بِشَتّى أَلْوانِ الزّينَةِ؛ ابْتِهاجًا وفَرَحًا بِعَوْدَةِ الأَميرِ الشّابِّ، بَعْدَ غِيابِهِ الطَّويلِ.

وكانَتِ العادَةُ لِبَعْضِ الْخُلَفاءِ والكُبَراءِ مِنَ العَرَبِ، أَنْ يَبْعَثوا بِأَبْنائِهِمْ إلى الصَّحْراءِ، لِتَعَلُّمِ الفُروسِيَّةِ، وخُشونَةِ العَيْشِ، في عالَمِ البادِيَةِ، ومُمارَسَةِ الْحَياةِ

عَلى الطَّبيعَةِ، وأَخْذِ الْحِكْمَةِ مِنْ مَصْدَرِها، وَسْطَ القاعِدَةِ العَريضَةِ مِنَ النّاسِ، بَعيدًا عَنْ تَرَفِ الْمَدينَةِ، وكَسَلِها، ومَباذِلِها.

وكانَ الهَدَفُ الأَهَمُّ، هُوَ تَدْريبَ هَؤُلاءِ الأَبْناءِ عَلى واقِعِيَّةِ الْحَياةِ، ولَيْسَ عَلى أَلْفاظِها أَوْ رُموزِها الْمُجَرَّدَةِ، ثُمَّ إعْدادَهُمْ لِتَوَلّي الْحُكْمِ فيما بَعْدُ، إنْ كانوا مِنَ الأُمَراءِ، أَوْ مِنْ أَبْناءِ العُظَماءِ، أَوِ الطَّبَقَةِ الحاكِمَةِ.

وذاتَ يَوْمٍ، شَكَتْ إحْدى الزَّوْجَتَيْنِ فَقالَتْ لِهارونَ الرَّشيدِ:

« أَنْتَ تَخُصُّ ابْنَ ضَرَّتي، بِكُلِّ الرِّعايَةِ، ولا تَأْبَهُ بِابْني ! »

فَقالَ هارونُ الرَّشيدُ: « ابْنُكِ، هُوَ ابْني، ولا فَرْقَ بَيْنَهُ وبَيْنَ أَيِّ ابْنٍ آخَرَ مِنْ أَبْنائي. »

قالَتْ: « لَكِنَّكَ تُؤْثِرُ ابْنَ الأخْرى، وتَبْعَثُهُ إلى

الصَّحْراءِ، دونَ ابني، حَتّى إذا عادَ، تَسْتَقْبِلُهُ، بِأَحْضانِكَ الطَّويلَةِ الدّافِئَةِ! تُقَبِّلُهُ، وتُفَضِّلُهُ في مَجالِسِكَ، وتُكْثِرُ مَعَهُ حَديثَكَ، وتَخْرُجُ مَعَهُ لِلنُّزْهَةِ، أَوْ لِلصَّيْدِ، وتُشارِكُهُ الضَّحِكَ والْمُداعَبَةَ، ثُمَّ إِنَّكَ تَجْعَلُ مِنْ عَوْدَتِهِ إِلَيْكَ مِنَ الصَّحْراءِ عيدًا، يَحْتَفِلُ بِهِ القَصْرُ كُلُّهُ، بَلْ بَغْدادُ كُلُّها!»

قالَ هارونُ الرَّشيدُ: «إِنَّما تَفْضيلي – في الشَّبابِ – لِلذَّكاءِ وسَعَةِ الحيلَةِ، وعُلُوِّ الهِمَّةِ.»

وسَكَتَ الْخَليفَةُ؛ فَلاحَظَ عَدَمَ الرِّضا، وعَدَمَ القَناعَةِ، في مَلامِحِ زَوْجَتِهِ، وأَنَّهُ لا تَزالُ في نَفْسِها ثَوْرَةٌ غاضِبَةٌ، ثَوْرَةٌ تُجاهِدُ في كَتْمِها، وأَنَّها لا تَزالُ عِنْدَ اعْتِقادِها، بِأَنَّ ابْنَها خارِجَ دائِرَةِ الاهْتِمامِ والرِّعايَةِ عِنْدَ أَبيهِ، خَليفَةِ الْمُسْلِمينَ.

ثُمَّ أَلْقَتْ إِلَيْهِ بِهَذِهِ الفِكْرَةِ الْخَبيثَةِ:

«إِذا كانَ ابْنُ ضَرَّتي مُتَحَلِّيًا بِصِفاتِ الذَّكاءِ وسَعَةِ

الحيلَةِ، وعُلُوِّ الهِمَّةِ، كَما ذَكَرْتَ، فَهَلْ يَجْدُرُ بِمَنْ كانَتْ هَذِهِ صِفاتِهِ، أَنْ يُغازِلَ الْجَميلاتِ، داخِلَ القَصْرِ.»

وأَدْرَكَ الْخَليفَةُ، عَلى الفَوْرِ، أَنَّ الزَّوْجَةَ تُلْقي بِكَذْبَةٍ ظالِمَةٍ – كَذْبَةٍ هِيَ الفِتْنَةُ ذاتُها، وتُريدُ بِها أَنْ توغِرَ صَدْرَهُ عَلى ابْنِهِ.. تُلْقي بِها، كَآخِرِ طَلْقَةٍ مِنْ طَلَقاتِ الحِقْدِ، الَّذي يَعْتَصِرُ قَلْبَها.

وعَلى الفَوْرِ، قَرَّرَ أَنْ يَحْسِمَ الأَمْرَ أَمامَها، قَوْلاً وعَمَلاً، فَقالَ: «هَذِهِ تُهْمَةٌ جائِرَةٌ، ولَنْ أُصَدِّقَها، ولَنْ أَقْبَلَها. وأَنْصَحُكِ، يا امْرَأَةُ، أَن تَكُفّي عَنْ هَذا الهُراءِ، وأَلا تَكوني كَامْرَأَةِ الْعَزيزِ في مِصْرَ، الَّتي اتَّهَمَتْ يوسُفَ عليه السلام ظُلْمًا بِمِثْلِ ما تَتَّهِمينَ ابْنِيَ الْمَأْمونَ.

«إِنَّ كُلًّا مِنْ يُوسُفَ وابْني الْمَأْمونِ مِثالٌ لِلنَّزاهَةِ والشَّرَفِ. ولَعَلَّكِ تَذْكُرينَ أَنَّ مِنْ جَرّاءِ التُّهْمَةِ الظّالِمَةِ، دَخَلَ يُوسُفُ السِّجْنَ، لِيَخْرُجَ عَنْ بَراءَةٍ، مُتَوَلِّيًا عَرْشَ الوِزارَةِ في مِصْرَ، وأَنَّ امْرَأَةَ الْعَزيزِ هِيَ الَّتي اعْتَرَفَتْ

بِنزاهَتِهِ وَطَهارَتِهِ، وَهِيَ الَّتي بَرَّأَتْهُ مِنَ التُّهْمَةِ ، كما أنَّ إخْوَتَهُ الَّذينَ تآمَروا عَلَيْهِ قَبْلَها ذاقُوا ضائِقَةَ العَوَزِ والفَقْرِ، وتَضَرَّعوا إلى يُوسُفَ؛ يَرْجونَهُ أنْ يُعاوِنَهُمْ ويَتَصَدَّقَ عَلَيْهِمْ، بَعْدَ أنْ ضاقَتِ الْحَياةُ بِهِمْ في صَحْرائِهِمْ!»

وأَضافَ هارونُ الرَّشيدُ: «لا أُريدُ، يا امْرَأَةُ، أنْ يَحْدُثَ لَكِ، مِثْلَما حَدَثَ لامْرَأَةِ الْعَزيزِ وَلإخْوَةِ يُوسُفَ!»

فَقالَتِ الزَّوْجَة، بِلَهْجَةٍ مُنْهَزِمَةٍ، مُتَراجِعَةٍ:

«ما العَيْبُ، إذًا، في ابني، حَتّى لا تَحْتَفِيَ بِهِ، احْتِفاءَكَ بِابْنِ ضَرَّتي؟»

نَظَرَ إلَيْها هارونُ الرَّشيدُ، ولَمْ يَقُلْ شَيْئًا، بَلْ نادى خادِمًا، وأَمَرَهُ أنْ يَأْتِيَ بِابْنِها.

قَبْلَ أنْ يَحْضُرَ الابْنُ، دَسَّ هارونُ الرَّشيدُ، عَلى مَرْأًى مِنْها، كِتابًا أَسْفَلَ حَشِيَّةِ المَقْعَدِ، الَّذي سَيَجْلِسُ عَلَيْهِ

الابْنُ أَمامَهُ. وجاءَ الابْنُ وجَلَسَ.

وسَأَلَهُ أَبوهُ الْخَليفَةُ: «ما حالُ الدُّنْيا، يا بُنَيَّ؟»

فَنَظَرَ الابْنُ، يَمينًا وشِمالاً؛ بَحْثًا عَنْ إجابَةٍ لِهَذا السُّؤالِ الْمُفاجِئِ الغامِضِ، وقَدْ ظَهَرَتْ عَلى وَجْهِهِ ابْتِسامَةٌ بَلْهاءُ.. أَخيرًا أَجابَ:

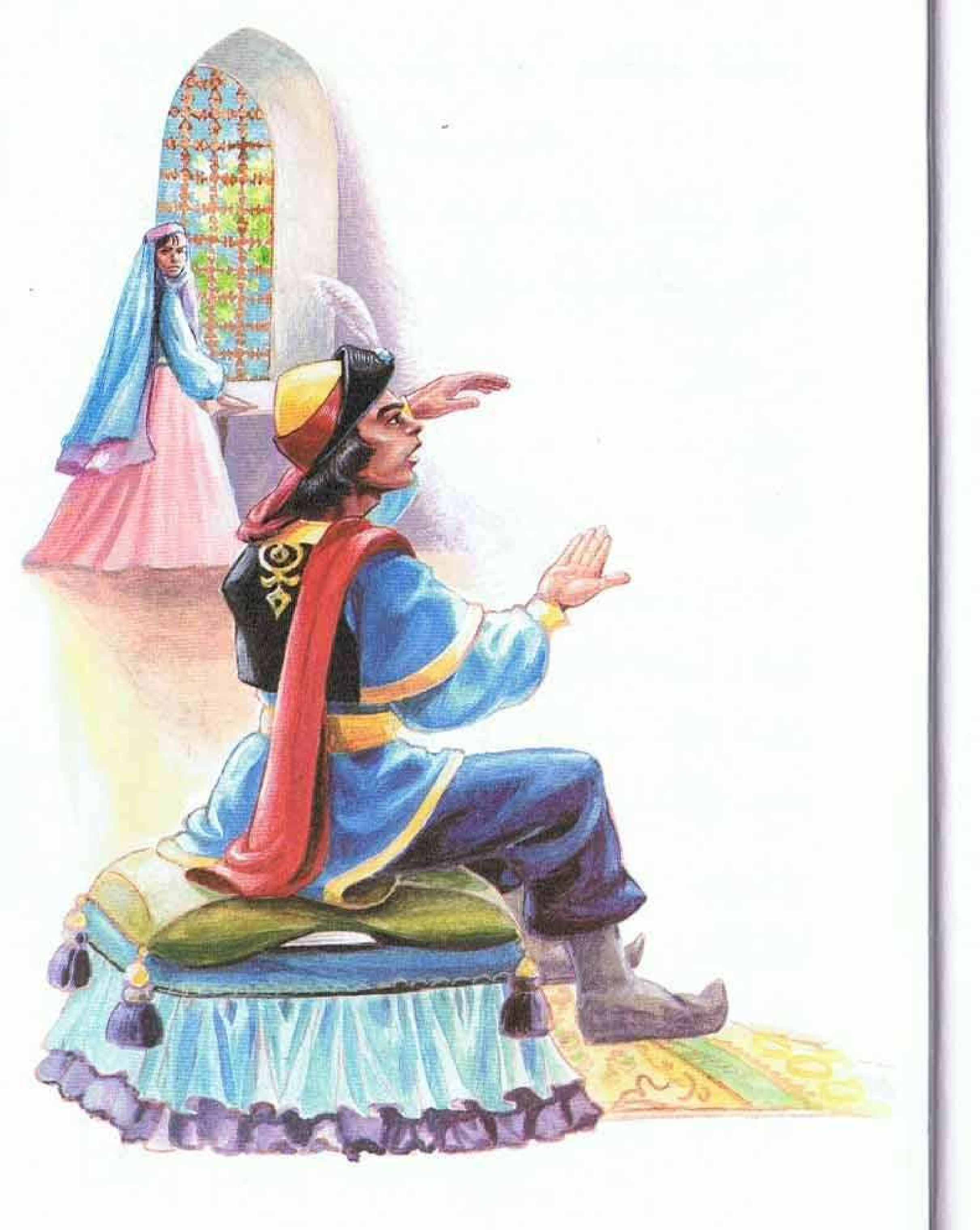
«الدُّنْيا عَلى ما يُرامُ، يا خَليفَةَ الْمُسْلِمينَ!»

فَقالَ هارونُ الرَّشيدُ: «أَحْسَنْتَ يا وَلَدي. انْصَرِفِ الآنَ.»

ثُمَّ أَمَرَ بإحْضارِ ابْنِهِ الآخَرِ. ولَمّا حَضَرَ، وَقَفَ قُبالَةَ أَبيهِ، في أَدَبٍ جَمٍّ، وعِنْدَما أَمَرَهُ بِالْجُلوسِ، جَلَسَ، والزَّوْجَةُ، كُلُّها عُيونٌ، تُراقِبُ في دَهْشَةٍ وحَذَرٍ. وسَأَلَ الخَليفَةُ الابْنَ:

«ما حالُ الدُّنْيا، يا بُنَيَّ؟»

نَظَرَ الابْنُ إلى أَعْلى، ثُمَّ إلى أَسْفَلُ، ثُمَّ قالَ:



« أَشْعُرُ ، يا خَليفَةَ الْمُسْلِمينَ ، بِأَنَّ الأَرْضَ قَدْ عَلَتْ ، أَوْ أَنَّ السَّماءَ ، قَدْ هَبَطَتْ ! »

فَقالَ هارونُ الرَّشيدُ ، عَلى الفَوْرِ : « أَحْسَنْتَ ، يا وَلَدي . . تَفَضَّلْ ! »

وتَفَضَّلَ الابْنُ بِالانْصِرافِ .

ثُمَّ الْتَفَتَ هارونُ الرَّشيدُ إلى زوجته وقالَ : « أَيَحْتاجُ الأَمْرُ إلى شَرْحٍ ؟ حَسَنًا ! إنَّ مَنْ يُدْرِكُ هَذا التَّغَيُّرَ الطَّفيفَ ، الَّذي أَحْدَثَهُ حَجْمُ كِتابٍ ، أَسْفَلَ حَشِيَّةِ هَذا الْمَقْعَدِ - لَهُوَ قادِرٌ عَلى إدْراكِ الْحِكْمَةِ مِنْ أَحْوالِ الدُّنْيا ، وقادِرٌ عَلى الشُّعورِ بِأَحْداثِ الْحَياةِ ، والأَحْياءِ . وما أَحْوَجَنا إلى مِثْلِ هَؤُلاءِ الأَبْناءِ ! وما أَحْوَجَ دَوْلَتَنا الكُبْرى ، لِمِثْلِ هَؤُلاءِ الأَذْكِياءِ ؛ لِلْحِفاظِ عَلى أَمْنِ الأُمَّةِ ، وعَقيدَتِها ، ولِلْحِفاظِ عَلى حُدودِها ، وأَراضيها الشّاسِعَةِ ، وَسْطَ غيلانٍ مِنَ الأَشْرارِ ، يَتآمَرونَ لَيْلَ نَهارَ ،

لِلنَّيْلِ مِنْها، ولِتَمْزيقِ شَمْلِ أَهْلِها، وجَعْلِهِمْ مُشَرَّدينَ مُهانينَ. »

كانَتِ الزَّوْجَة ساهِمَةً، شارِدَةً، وهِيَ تَسْتَمِعُ، وقَدْ تَأَكَّدَ لَها أَنَّ ابْنَها، لَنْ يَكونَ، أَبَدًا، الْخَليفَةَ القادِمَ، لِكُلِّ الْمُسْلِمينَ!

الفارِسُ الْمُلَثَّمُ

افْتَرَشَ الْقَمَرُ سَطْحَ الأَرْضِ، وطابَ لِجَدِّي مَجْلِسُهُ في اللَّيالي الْمُقْمِرَةِ بِجوارِ الْبِئْرِ الْقَديمَةِ، وَاتَّخَذْتُ مَجْلِسي بِقُرْبِهِ، وَانْتَظَرْتُ مِنْهُ حِكايَةَ « الْفارِسِ الْمُلَثَّمِ » الَّتي وَعَدَني بِها.. قالَ جَدّي:

« كانَ رِجالُ قَبيلَتِنا كَرِجالِ سائِرِ الْقَبائِلِ الْعَرَبِيَّةِ، يُحِبّونَ إِنْجابَ الذُّكورِ وَيَكْرَهونَ إِنْجابَ الْبَناتِ! وكانَتْ زَوْجَةُ أَحَدِنا حامِلاً، وكانَ يَنْتَظِرُ الْمَوْلودَ الذَّكَرَ بِصَبْرٍ نافِدٍ، وَلَهْفَةٍ قَوِيَّةٍ، ولَكِنَّ زَوْجَتَهُ وَضَعَتْ بِنْتًا!

« وَقَفَ الرَّجُلُ ونَظَرَ في عَيْنَيْ زَوْجَتِهِ، كَأَنَّما يُعاقِبُها. كانَ يَكْظِمُ غَيْظَهُ ويُداري غَضَبَهُ. ونَظَرَتْ زَوْجَتُهُ في عَيْنَيْهِ، كَأَنَّما تَتَضَرَّعُ، وتَرْجوهُ أَلا يَأْخُذَ الْبِنْتَ الْوَليدَةَ

ويَدْفِنَها في الرَّمْلِ كَما يَفْعَلُ بَعْضُ رِجالِ الْقَبائِلِ !

« لَقَدِ انْتَظَرَ طَويلاً كَيْ تُنْجِبَ لَهُ ذَكَرًا .

« لَقَدْ فَقَدَتِ الْقَبيلَةُ الْكَثيرَ مِنْ أَشْجَعِ فِتْيانِها ، أَكَلَتْهُمُ الحُروبُ الْمُسْتَمِرَّةُ فَأَصْبَحَتْ حاجَتُها مُلِحَّةً لِرِجالِ يُدافِعونَ ، ورِجالٍ يُهاجِمونَ ؛ فَالْحُروبُ تَشْتَعِلُ في أَيَّةِ لَحْظَةٍ ، ولأَدْنى سَبَبٍ ، أَوْ حَتّى بِدونِ سَبَبٍ ، سِوى السَّلْبِ والنَّهْبِ .

« وكانَ حَظُّ البِنْتِ طَيِّبًا ، فَنَجَتْ مِنَ الْمَوْتِ ومُنِحَتِ الحَياةَ . وأَرادَتْ أُمُّها أَنْ تُنْشِئَها نَشْأَةً مُخالِفَةً لِما تَعَوَّدَ النّاسُ ، وَكَأَنَّ ذَلِكَ مُوافِقًا لِرَغْبَةِ أَبيها ، فَلَمْ تُلْبِسْها مَلابِسَ الْبَناتِ ، وإِنَّما أَلْبَسَتْها مَلابِسَ الصِّبْيانِ ؛ ذَلِكَ أَنَّ رَغْبَةً طَرَأَتْ في ذِهْنِ الأَبِ وَالأُمِّ ، تَمَّ عَلى إِثْرِها الاتِّفاقُ عَلى أَلا يَبوحا لأَحَدٍ بِأَنَّ مَوْلودَهُما جاءَ بِنْتًا ، واحْتَفَظا بِالسِّرِّ . وهَكَذا لَمْ يَعْلَمْ بِحَقيقَةِ المَولودِ أَحَدٌ غَيْرُهُما .

« وكَبَرَتْ (فارِس) ، هَكَذا أَطْلَقوا عَلَيْها في أَوَّلِ الأَمْرِ ، ثُمَّ صارَ لَها لَقَبٌ هُوَ (الْمُلَثَّم) ، وَ هُوَ ما عُرِفَتْ بِهِ فيما بَعْدُ ، حَتّى آخِرِ الْعُمْرِ .

قُلْتُ لِجَدّي : « لا بُدَّ لإِطْلاقِ هَذا اللَّقَبِ مِنْ سَبَبٍ ؟»

قالَ : « نَعَمْ ، فَعِنْدَما اكْتَمَلَ نُضْجُها أَسْرَعَتْ فَوَضَعَتْ لِثامًا عَلى وَجْهِها ، وغِطاءً عَلى شَعْرِها ، وَلَمْ يَظْهَرْ مِنْها سِوى عَيْنَيْها ، وصارَ اللِّثامُ لا يُفارِقُ وَجْهَها أَبَدًا . »

سَأَلْتُ جَدّي : « ومَعَ الْفَتَياتِ ، ماذا كانَتْ تَصْنَعُ ، يا جَدّي ؟»

قالَ : « لَمْ تَلْعَبْ أَلْعابَهُنَّ أَبَدًا . وعِنْدَما كَبَرَتْ لَمْ تُشارِكْهُنَّ عَمَلاً ولا حَضَرَتْ لَهُنَّ مَجْلِسًا ، في السِّرِّ كانَ أَوْ في الْعَلَنِ . كانَتْ تَسوقُ الإِبِلَ ، وتَمْضي إلى الْمَراعي ، وتَرْكَبُ الخَيْلَ ، بَلْ وتُشارِكُ في الحُروبِ .

وكانَتْ في أَوْقاتِ السِّلْمِ تَرْمَحُ عَلى ظَهْرِ جَوادٍ في الصَّحْراءِ ، كأَنَّما تُريدُ مِنَ الرَّمْلِ ، أَيْضًا ، أَنْ يُصَدِّقَ أَنَّها فارِسٌ حَقًّا ، ولَيْسَتْ فَتاةً مِنَ الْفَتَياتِ .

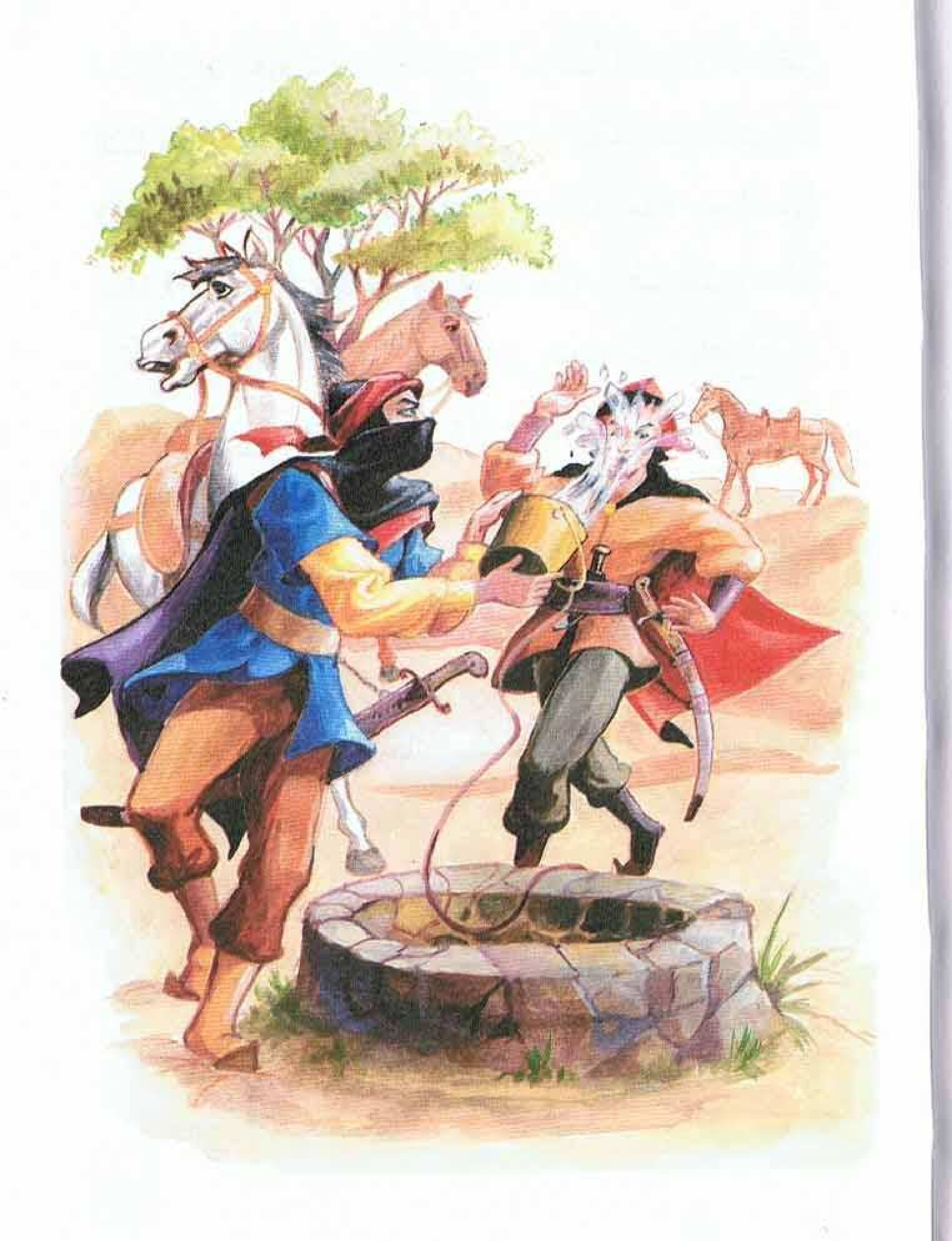
« كانَ هَذا التَّنَكُّرُ يُشْعِرُها بِالرِّضا ؛ لأَنَّ والِدَيْها راضِيانِ ، ولأَنَّ أَفْرادَ الْقَبيلَةِ راضونَ عَنْها كَفارِسٍ قَوِيٍّ مِقْدامٍ !

« وذاتَ يَوْمٍ كانَتْ تَمْلأُ دَلْوًا مِنَ الْبِئْرِ ، وكانَتِ الدَّوابُّ مِنْ حَوْلِها تَشْرَبُ . وبَيْنَما هِيَ تَسْحَبُ الدَّلْوَ مِنَ الْبِئْرِ ، انْقَطَعَ الْحَبْلُ ، وسَقَطَتِ الدَّلْوُ .

« في هَذِهِ اللَّحْظَةِ ، فوجِئَتْ بِشَخْصٍ واقِفٍ بِالْقُرْبِ مِنْها ، يَنْظُرُ إِلَيْها كَأَنَّما يَتَفَحَّصُها . فَشَعَرَتِ (الْمُلَثَّمُ) بِالاضْطِرابِ والْغَضَبِ ، خاصَّةً عِنْدَما عَرَفَتْ أَنَّ هَذا الشَّخْصَ الْغَريبَ هُوَ أَحَدُ فُرْسانِ قَبيلَةٍ لَمْ يَكُنْ بَيْنَها وبَيْنَ قَبيلَتِها وُدٌّ وَسَلامٌ .

« ولِكَيْ تُخْفِيَ الاضْطِرابَ - انْدَفَعَتْ في مُحاوَلَةٍ خَطِرَةٍ لالْتِقاطِ طَرَفِ الحَبْلِ الْمَقْطوعِ مِنْ جَوْفِ الْبِئْرِ ، ونَجَحَتْ . لَكِنْ عِنْدَما الْتَفَتَتْ وَراءَها ، لَمْ تَجِدِ الْفارِسَ الْغَريبَ ، وشاهَدَتْهُ مُبْتَعِدًا فَوْقَ فَرَسِهِ . فَصاحَتْ بِهِ بِصَوْتٍ عالٍ ، مُقَلِّدَةً صَوْتَ الرِّجالِ ، فَالْتَفَتَ الْفارِسُ الْغَريبُ ، وعادَ أَدْراجَهُ نَحْوَ الْبِئْرِ . ثُمَّ فوجِئَ بِـ (الْمُلَثَّمِ) تَسْكُبُ الْماءَ أَمامَ حِصانِهِ الْعَطْشانِ ! عِنْدَئِذٍ راحَ الْفارِسُ الْغَريبُ يَتَأَمَّلُ الأَمْرَ مُنْدَهِشًا .

« وعِنْدَما فَرَغَتِ (الْمُلَثَّمُ) مِنْ سَقْيِ دَوابِّها ، تارِكَةً الدَّلْوَ عَلى حافَةِ الْبِئْرِ ، تَناوَلَها الْفارِسُ الْغَريبُ ، كَيْ يَمْلأَها لِيَشْرَبَ ، بَعْدَ أَنْ شَرِبَ حِصانُهُ . وقَبْلَ أَنْ يَقْرُبَ الدَّلْوُ مِنْ فَمِهِ ، فوجِئَ بِحَفْنَةٍ مِنَ الرَّمْلِ تُقْذَفُ داخِلَها ، فَتَوَقَّفَ ونَظَرَ مُنْدَهِشًا إلى (الْمُلَثَّمِ) ثُمَّ سَمِعَ عِبارَةَ : ‹‹ الجَبانُ لا يَسْتَحِقُّ الشُّرْبَ ! ››



« ولَمْ يَدْرِ الْفارِسُ الغَريبُ ماذا يَفْعَلُ ، وفَهِمَ أَنَّ سَبَبَ ما حَدَثَ هُوَ انْصِرافُهُ عِنْدَ انقِطاعِ الحَبْلِ ، وسُقوطِ الدَّلْوِ ، دونَ مُساهَمَةٍ مِنْ ناحِيَتِهِ لإنْقاذِ الدَّلْوِ . ولَمْ يَفْهَمْ سَبَبًا آخَرَ لِهَذا الْعَداءِ مِنْ قِبَلِ الْمُلَثَّمِ !

« وذاتَ يَوْمٍ . . كانَ الْفارِسُ الْغَريبُ مارًّا بِقُرْبِ الْبِئْرِ ، ولَمَحَ (الْمُلَثَّمَ) هُناكَ أَمامَ دَوابِّها ، فَانْحَرَفَ إِلَيْها مُسْرِعًا . . كانَتِ (الْمُلَثَّمُ) في تِلْكَ اللَّحْظَةِ تَحْمِلُ الدَّلْوَ مُمْتَلِئَةً . وما إنِ اقْتَرَبَ مِنْها الْفارِسُ الْغَريبُ حَتّى انْقَذَفَ ماءُ الدَّلْوِ في وَجْهِهِ . وأُصيبَ الْفَتى بِصَدْمَةٍ أُخْرى ! »

قُلْتُ لِجَدّي : « رُبَّما ظَنَّتْ أَنَّ الْفارِسَ الْغَريبَ جاءَ عَمْدًا إلى الْبِئْرِ ، في هَذا الْوَقْتِ ؛ لِيَتَحَرَّشَ بِها ويَنْتَقِمَ مِنْها . »

قالَ جَدّي : « نَعَمْ كانَ قَصْدُ الْمَجيءِ واضِحًا ، وهُوَ التَّحَرُّشُ والانْتِقامُ ، ولَعَلَّ (الْمُلَثَّمَ) خَشِيَتْ أَنْ يَكْشِفَ

أَحَدٌ أَمْرَها خاصَّةً هَذا الْفارِسُ الْغَريبُ الَّذي كانَ يَنْظُرُ إِلَيْها نَظَراتٍ حادَّةً فاحِصَةً . وقَبْلَ أَنّ يَصْدُرَ عَنِ الْفَتى رَدُّ فِعْلٍ تُجاهُ (الْمُلَثَّمِ) وَجَدَ نَفْسَهُ مُحاطًا بِعِدَّةِ رِجالٍ مِنْ قَبيلَةِ (الْمُلَثَّمِ) ، نَجَحوا في تَقْييدِ يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ . ثُمَّ أَرْكَبوهُ حِصانَهُ ، الَّذي انْطَلَقَ بِهِ إلى مَضارِبِ قَبيلَتِهِ !»

قُلْتَ لِجَدّي : « لَكِنْ مِنْ أَيْنَ جاءَ الرِّجالُ ؟ هَلْ كانَ تَواجُدُهُمْ فَجْأَةً ؟»

قالَ جَدّي : « لا . . كان ، والِدُ (الْمُلَثَّمِ) يَبْعَثُ بِرِجالٍ سِرًّا ، لِمُراقَبَةِ ابْنَتِهِ الْمُتَنَكِّرَةِ ، خَشْيَةَ مُهاجَمَتِها مِنَ الْقَبائِلِ الأُخْرى الَّتي كانَتْ تُشارِكُ قَبيلَتَهُ الانْتِفاعَ بِمِياهِ هَذِهِ الْبِئْرِ الْعامَّةِ .

« ولَمّا عادَتِ (الْمُلَثَّمُ) إلى الْبَيْتِ و أَفْضَتْ بما كانَ لأَبيها ، قالَ أَبوها الشَّيْخُ : ‹‹ أرى أَنَّها الْحَرْبُ ، وسَنَخوضُ غِمارَها إمّا هَذِهِ اللَّيْلَةَ أو في فَجْرِ الْغَدِ . ››

« وأَسْرَعَتِ (الْمُلَثَّمُ) فَجَمَعَتْ فِتْيانَ الْقَبيلَةِ وفَتَياتِها ، وأَمَرَتْهُمْ بِصُنْعِ حِبالٍ عَلى وَجْهِ السُّرْعَةِ ، ومِنْ هَذِهِ الحِبالِ صَنَعوا سورًا قَريبًا مِنَ الأَرْضِ ، يُحيطُ بِخِيامِ الْقَبيلَةِ مِنْ جَميعِ الجِهاتِ . وكانَ مِنْ شَأْنِ هَذا السّورِ عَرْقَلَةُ الْخُيولِ الْمُهاجِمَةِ .

« وفي فَجْرِ الْيَوْمِ التّالي أَغارَتْ قَبيلَةُ الْفَتى ، فَفي مِثْلِ هَذا التَّوْقيتِ ، كانَتْ تُشَنُّ الحُروبُ بَيْنَ قَبائِلِ الصَّحْراءِ . ولَكِنَّ الخُيولَ الْمُهاجِمَةَ تَكَوَّمَتْ وسَقَطَتْ بِفُرْسانِها قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إلى أَغْراضِها . وفَشِلَ الْهُجومُ فَشَلاً ذَريعًا ، بِسَبَبِ هَذا السّورِ الَّذي كانَ خُدْعَةً حَرْبِيَّةً غَيْرَ مَسْبوقَةٍ .

« وأُخِذَ بَعْضُ الْمُهاجِمينَ أَسْرى . وكانَتْ قَبيلَةُ الْمُلَثَّمِ جاهِزَةً ، لَيْسَ لِلدِّفاعِ فَقَطْ ، بَلْ لِلْهُجومِ الْمُضادِّ . فَطارَدَتِ الْفُلولَ الْهارِبَةَ ودَخَلَتْ وَراءَهُمْ مَضارِبَ الْقَبيلَةِ ، واسْتَوْلَتْ عَلى بَعْضِ الأَمْوالِ . لَكِنْ – والْحَقُّ يُقالُ – لَمْ

يُرَوَّعْ أطْفالٌ في هَذا الْهُجومِ الْمُضادِّ ، ولَمْ تُسْفَكِ الدِّماءُ ، ولَمْ تُخرَّبِ الدِّيارُ . »

قُلْتُ لِجَدّي : « وحَتّى ما حَدَثَ عِنْدَ الْبِئْرِ ، لَمْ يَكُنْ مَعْرَكَةً بِمَعْنى الْكَلِمَةِ . أَقْصِدُ لَمْ تُسْفَكْ فيها دِماءٌ . »

قالَ جَدّي : « نَعَمْ . . لَكِنَّ تَقْييدَ الأَيْدي لِفارِسِ قَبيلَةٍ أَشَدُّ وَقْعًا مِنْ ضَرْبِ السَّيْفِ ، ولِهَذا نَشَبَتِ الحَرْبُ . »

قُلْتُ لِجَدّي : « والْمُلَثَّمُ ، يا جَدي ، ماذا عَنْها ؟ »

قالَ : « كانَتْ تَقودُ فِرْقَةً . وظَلَّتْ تَمْرُقُ بِحِصانِها وَسَطَ خِيامِ الْقَبيلَةِ الْمُعادِيَةِ ، كَأَنَّما تَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ !

« وفَجْأَةً هوجِمَتْ مِنَ الخَلْفِ بِفِرْقَةٍ مِنْ نِساءِ الأَعْداءِ تَقودُها فَتاةٌ ، هِيَ أُخْتُ (الواعِر) . و (الواعِرُ) هُوَ فارِسُ الْقَبيلَةِ الْمُعادِيَةِ ، وهُوَ ذاكَ الَّذي هوجِمَ عِنْدَ الْبِئْرِ . واسْتَطاعَ رِجالُ (الْمُلَثَّم) الإمْساكَ بِأُخْتِ (الواعِر) وأَخَذوها أَسيرَةً ، واتَّضَحَ أَنَّها مَنْ كانَتْ تَبْحَثُ عَنِ

(الْمُلَثَّم) !

« وتَوَقَّفَتِ الْحَرْبُ ، بَعْدَ أَنْ تَراجَعَ (الْواعِرُ) إلى الصَّحْراءِ بِرِجالِهِ . »

سَأَلْتُ جَدّي : « لَكِنْ لِماذا تَراجَعَ (الْواعِرُ) إلى الصَّحْراءِ ، وتَرَكَ أُخْتَهُ لِتَقودَ النِّساءَ ؟ »

قالَ جَدّي : « التَّراجُعُ مِنَ الْمَعْرَكَةِ أَحْيانًا لَيْسَ جُبْنًا ، يا وَلَدي ، رُبَّما كانَ لإعادَةِ التَّنْظيمِ ، والتَّدْبيرِ لِهُجومٍ أَكْثَرَ إحْكامًا . و (الْواعِرُ) لَمْ يَكُنْ جَبانًا ، بَلْ كانَ فارِسًا مِغْوارًا ، وشَرِسًا لا يَرْحَمُ ، حَتّى إنَّ الْقَبائِلَ أَطْلَقَتْ عَلَيْهِ لَقَبَ (الواعِرِ) ، أَيِ الشَّديدِ الصَّعْبِ . . وتَراجُعُ (الواعِرِ) إلى الصَّحْراءِ بِرِجالِهِ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مَعْنًى سِوى إعادَةِ الكَرَّةِ بِهُجومٍ أَكْثَرَ شَراسَةً ، بَعْدَ أَنْ تَعَلَّمَ الدَّرْسَ مِنْ فَشَلِ هُجومِهِ السّابِقِ .

« وبَعْدَ أَنْ حَصَروا الْغَنائِمَ الَّتي أَخَذوها ، قالَتِ

(الْمُلَثَّمُ) لِوالِدِها : ‹‹ هَذِهِ يا أَبي اتْرُكْها لي ! ›› وَأَشارَتْ إلى الأَسيرَةِ أُخْتِ (الواعِرِ) .

« وظَنَّتِ الأَسيرَةُ أَنَّ وَضْعَها مُنْفَرِدَةً في خَيْمَةٍ تَحْتَ رَحْمَةِ الْفارِسِ (الْمُلَثَّم) نَذيرُ سوءٍ ، وَأَنَّهُ وَضْعٌ يُنْبِئُ عَنْ نِيّاتٍ شِرّيرَةٍ . واسْتَعَدَّتْ بَيْنَها وبَيْنَ نَفْسِها لِمُجابَهَةِ هَذا الأَمْرِ ، بِأَنْ أَخْفَتْ سِكّينًا تَحْتَ ثِيابِها ، كَيْ تَنْقَضَّ بِها في اللَّحْظَةِ الْمُناسِبَةِ لِتُجْهِزَ بِها عَلى مَنْ يُحاوِلُ الاعْتِداءَ عَلَيْها ، أَوْ تُجْهِزَ بِها عَلى نَفْسِها في حالَةِ عَجْزِها عَنِ الْمُقاوَمَةِ .

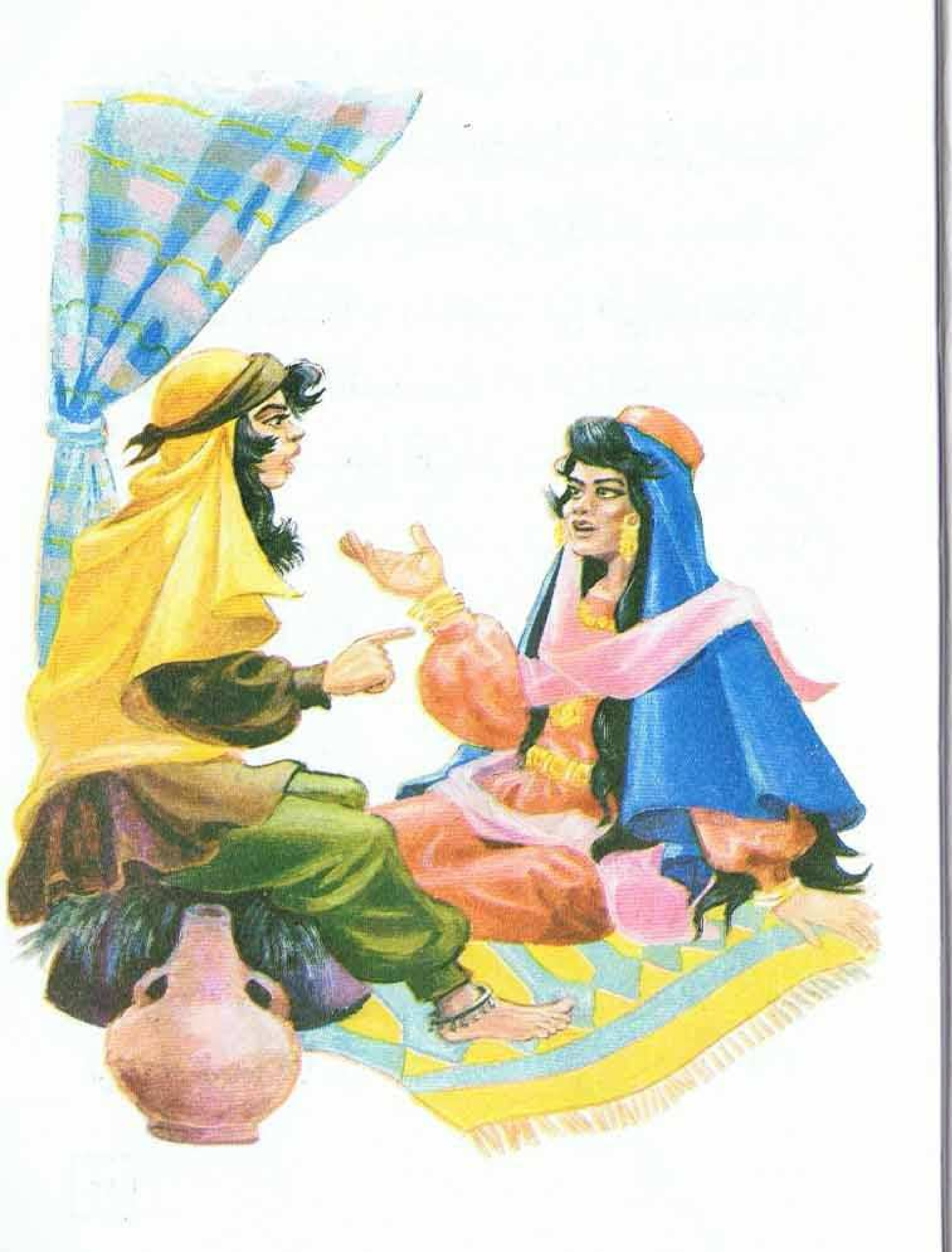
« ومَرَّتْ أَيّامٌ طويلَةٌ ، ولَمْ يَلْحَقْها أَذًى . ودَهِشَتْ لِذَلِكَ ، وزادَ مِنْ دَهْشَتِها أَنَّها لَمْ تُكَلَّفْ بِأَيِّ عَمَلٍ ، مِمّا يُكَلَّفُ بِهِ الأَسْرى مِنْ قِبَلِ آسِريهِمْ . كَما أَنَّ الطَّعامَ كانَ جَيِّدًا ، وَالْمُعامَلَةَ كَريمَةٌ . و (الْمُلَثَّمُ) ، هَذا الْفَتى الْقَوِيُّ الْمُنْتَصِرُ ، لَمْ يُرَ إلا داخِلاً خارِجًا بَعيدًا عَنْها ، وحَتّى

دونَ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَيْها !

« وخَجِلَتِ الأَسيرَةُ مِنْ نَفْسِها ؛ فَقَدْ كانَتْ تَتَحَسَّسَ بِيَدِها سِكّينَها ، كُلَّما رَأَتِ (الْمُلَثَّمَ) وظَنَّتْ أَنَّهُ في طَريقِهِ إِلَيْها .

« ثُمَّ لاحَظَتِ أُمورًا ، كانَتْ تَزيدُها عَجَبًا ودَهْشَةً . ؛ فَقَدْ سَمِعَتْ ذاتَ يَوْم صَوْتَ امْرَأَةٍ داخِلَ خَيْمَةِ (الْمُلَثَّم) ونَظَرَتْ مِنْ ثَقْبٍ في خَيْمَتِها لِتَرى مَنْ سَتَخْرُجُ مِنَ الخَيْمَةِ بَعْدَ الحَديثِ ، فَإِذا هُوَ والِدُ الْمُلَثَّمِ ، فَالْمُلَثَّمُ نَفْسُهُ ! إِذًا أَيْنَ الْمَرأَةُ الَّتي كانَتْ تَتَحَدَّثُ ؟!

« وتَمَلَّكَتْها الحَيْرَةُ إلى أَنْ شاهَدَتِ (الْمُلَثَّمَ) بِأُمِّ عَيْنَيْها ذاتَ يَوْمٍ مِنْ خِلالِ ثَقْبِ خَيْمَتِها ، وكانَ بابُ الخَيْمَةِ الأُخْرى مَفْتوحًا . شاهَدَتْ أَطْوَلَ شَعْرٍ لأَجْمَلِ فَتاةٍ ! وفي اللَّحْظَةِ نَفْسِها أَطَلَّتِ (الْمُلَثَّمُ) مِنْ بابِ خَيْمَةِ الأَسيرَةِ بِوَجْهِ فَتاةٍ كَالْبَدْرِ . دَخَلَتْ وجَلَسَتْ بِهُدوءٍ عَلى



الأَرْضِ . وكانَتِ الأَسيرَةُ تَجْلِسُ في مُواجَهَتِها ، تُحَدِّقُ فيها مَذْهولَةً . قالَتْ لَها الأَسيرَةُ بَعْدَ أَنْ سَكَنَ صَدْرُها ، وهَدَأَتْ دَهْشَتُها : «« عَرَفْتُكِ مِنْ قَبْلُ . لِماذا تَتَنَكَّرينَ ، يا أُخْتاهُ ؟ »»

« ولَمْ تَرُدَّ (الْمُلَثَّمُ) فَوْرًا ، رُبَّما كانَتْ تَجْمَعُ أَفْكارَها . أَخيرًا قالَتْ بِصَوْتٍ كَأَنَّما تُحَدِّثُ نَفْسَها :

«« جَعَلوني فَتًى بَعْدَ أَنْ نَدَرَ وُجودُ الْفِتْيانِ داخِلَ الْقَبيلَةِ . ماتَ الْفِتيانُ مِثْلَ آبائِهِمْ ، فَما يَكادُ الْفَتى يَشِبُّ حَتّى تَلْتَهِمَهُ نيرانُ الْحَرْبِ ! كَأَنَّنا نُرَبّي حَطَبًا لا بَشَرًا ، وَقودًا لِجَحيمٍ لا يَتَوَقَّفُ أَبَدًا ! »»

« وَصَمَتَتِ (الْمُلَثَّمُ) ، وأَطْرَقَتْ في وُجومٍ ، ولَمْ تَشَإِ الأَسيرَةُ أَنْ تَقْطَعَ حَبْلَ الصَّمْتِ ، فَخَيَّمَ الصَّمْتُ الحَزينُ عَلى الْمَجْلِسِ . وأَخيرًا قالَتْ :

«« أَلا مِنْ نِهايَةٍ لِهَذِهِ الْمَآسي يا أُخْتاهُ ؟ »» وَجَّهَتْ

هَذا السُّؤالَ مُباشَرَةً إلى الأَسيرَةِ .

« بَعْدَ لَحْظَةِ صَمْتٍ سَأَلَتِ الأَسيرَةُ : ‹‹ لَكِنْ أَ لَسْتِ أَنْتِ مَنْ أَشْعَلَ الحَرْبَ بِحادِثِ البِئْرِ ؟ ››

« فَقالَتِ (الْمُلَثَّمُ) : ‹‹ الحَرْبُ هِيَ الَّتي تَداعَتْ مِنْ هَذا الحادِثِ ، ولَمْ أَقْصِدْ حَرْبًا فَأَنا أَكْرَهُ الْحَرْبَ . سَتُرَدُّ لَكُمْ أَمْوالُكُمْ ، وسَيَعودُ كُلُّ أَسْراكُمْ . ›› وأَضافَتْ :

«‹‹ ما دامَتِ الْحَرْبُ قَدْ وَقَعَتْ ، فَلْيَقَعْ بَعْدَها الْحُبُّ . . نَعَمْ لِيَكُنِ الْحُبُّ بَيْنَ أَكْبَرِ قَبيلَتَيْنِ في هَذِهِ الصَّحْراءِ ، ولْيُصْبِحا قُدْوَةً لِكُلِّ الْقَبائِلِ . ››

« لَمْ تَرُدَّ الأَسيرَةُ . كانَتْ تُفَكِّرُ . وأَضافَتِ (الْمُلَثَّمُ) :
‹‹ هَلْ تَضَعينَ يَدَكِ في يَدي يا أُخْتاهُ ؟ هَلْ تَصْنَعينَ مَعي هَذا الْحُلْمَ ؟ هَلْ تَصْنَعينَ مَعي السَّلامَ لإِنْقاذِ ما تَبَقّى مِنَ الأَهْلِ والأَحْبابِ ؟ هَلْ تُنْقِذينَ مَعي الأَطْفالَ ؟ هَلْ تَرْحَمينَ الْعَجائِزَ ؟ ››

« لَمْ تُسْرِعِ الأَسيرَةُ في الإِجابَةِ ، وإِنَّما بَعْدَ تَفْكيرٍ قالَتْ : ‹‹ هَلْ يَتَّفِقُ مَعَكِ رِجالُكُمْ ››

« فَأَجابَتِ (الْمُلَثَّمُ) : ‹‹ أَبي وأُمّي يَتَّفِقانِ مَعي ، وكُلُّ عُقَلاءِ الْقَبيلَةِ ! ››

« فَقالَتِ الأَسيرَةُ :

«‹‹ يَقيني أَنَّ رِجالَنا لَيْسوا أَقَلَّ عَقْلاً مِنْ رِجالِكُمْ . ››

« ثُمَّ تَكَلَّمَتِ (الْمُلَثَّمُ) مَعَ الأَسيرَةِ طَويلاً ، و وَصَلَ حَديثُهُما إلى دَرَجَةِ الْهَمْسِ ، وهُوَ ما يَعْني التَّقارُبَ والتَّلاحُمَ . ثُمَّ نَهَضَتِ (الْمُلَثَّمُ) بَعْدَ أَنْ شَدَّتْ عَلى وَجْهِها لِثامَها ، وخَرَجَتْ مِنَ الخَيْمَةِ . وتَوَجَّهَتْ رَأْسًا إلى أَبيها ، وقالَتْ في نِهايَةِ حَديثِها مَعَهُ :

‹‹ وبِهَذا تَكونُ الْخُطْوَةُ الأُولى قَدْ تَمَّتْ ! ››

« فَقالَ أَبوها :

« ‹‹ وَأَنا جاهِزٌ لِلْخُطْوَةِ التّالِيَةِ ! ››

« في الْيَوْمِ التّالي أَرْسَلَتِ الأَسيرَةُ رِسالَةً إلى أَخيها (الواعِر) ومَعَ الرِّسالَةِ مِنْديلٌ ، لِتُؤَكِّدَ لَهُ رِسالَتَها . قالَتْ في الرِّسالَةِ : ‹‹ أَخي . . جَهِّزْ رِجالَكَ لا لِتَشُنَّ حَرْبًا ، بَلْ لِتُقابِلَ قَوْمًا سَوْفَ يُهْدونَكَ شَيْئًا عَزيزًا نادِرًا ! قَوْمًا انْتَصَروا عَلَيْكَ لَكِنَّهُمْ يَرْفَعونَ لَكَ رايَةً بَيْضاءَ ، ويُعيدونَ لَكَ أَسْراكَ وكُلَّ أَمْوالِكَ . ››

« عَلَّقَ أَحَدُ رِجالِ (الواعِر) قائِلاً :

« ‹‹ إِنَّها خُدْعَةٌ ! ›› وقالَ آخَرُ : ‹‹ إِنَّهُمْ يُريدونَ الْقَضاءَ عَلَيْنا ! ››

« اسْتَمَعَ (الواعِرُ) إلى آراءِ رِجالِهِ ، ثُمَّ وَضَعَ الْمِنْديلَ في جَيْبِهِ وقالَ : ‹‹ لا تَخْدَعُني أُخْتي ، فَهَذا مِنْديلُها وأَنا أَدْرى بِهِ . ››

ثُمَّ أَضافَ بَعْدَ تَفْكيرٍ :

« ‹‹ في الأَمْرِ شَيْءٌ أَجْهَلُهُ ! ››

« ونَجَحَتِ الرِّسالَةُ في جَعْلِ (الْواعِرِ) يُفَكِّرُ في أَيِّ شَيْءٍ ما عَدا شَنَّ الْحَرْبِ سَريعًا . لَمْ يَرُدَّ (الْواعِرُ) عَلى الرِّسالَةِ بِسَلْبٍ أَوْ إيجابٍ ، فَقَدْ كانَ في حَيْرَةٍ . . فَكانَتِ الرِّسالَةُ الثّانِيَةُ ، وكانَتْ هَذِهِ الرِّسالَةُ هي أُخْتَ الواعِرِ نَفْسَها ! نَعَمْ ذَهَبَتْ إِلَيْهِ فَوْقَ حِصانٍ ، وحَكَتْ لَهُ كُلَّ شَيْءٍ . فَقالَ الْواعِرُ بَعْدَ أَنِ اسْتَمَعَ :

« ‹‹ هَذِهِ الْفارِسَةُ نابِغَةٌ في صِناعَةِ الدَّهْشَةِ ، أَصابَني مِنْها حَلَقاتٌ عِنْدَ الْبِئْرِ ، وها هِيَ ذي الْحَلْقَةُ الأَخيرَةُ ، تَكادُ تَشُلُّ تَفْكيري ، بَعْدَ الْهَزيمَةِ في الْحَرْبِ ! ››

« فَقالَتْ أُخْتُهُ جادَّةً :

« ‹‹ وعَلى هَذِهِ الْوَتيرَةِ فَلْنَصْنَعْ دَهْشَةً أَكْبَرَ لِلْقَوْمِ ؛ لا بُدَّ أَنْ نَصْنَعَ سِتارَةً تُخْفي مآسِيَ الْحُروبِ السّابِقَةِ بَيْنَنا وبَيْنَهُمْ ! ››

« فَسَأَلَ الْواعِرُ أُخْتَهُ :

‹‹ ماذا تَقْصِدينَ بِالدَّهْشَةِ الأَكْبَرِ ؟››

« فَقالَتْ أُخْتُهُ :

‹‹ كَوْنُ فارِسِهِمْ فَتاةً ، سَوْفَ تَصيرُ عَروسًا لِفارِسِنا . إِنَّ هَذِهِ الدَّهْشَةَ قيمَةُ حَرارَةِ الشَّمْسِ الْقَوِيَّةِ وهِيَ تُذيبُ ثُلوجَ الْعِداءِ بَيْنَ الْقَبيلَتَيْنِ !››

« وهَزَّ (الْواعِرُ) رَأْسَهُ وقالَ لأُخْتِهِ :

‹‹ سَأَتَقَبَّلُ مِنْكِ هَذِهِ الهَدِيَّةَ ، هَذِهِ الدَّهْشَةَ !››

« فَسَأَلَتْهُ أُخْتُهُ مُبْتَسِمَةً :

‹‹ أَيَّ دَهْشَةٍ تَقْصِدُ ؟ الْعَروسَ أَمِ السَّلامَ ؟››

« فَقالَ (الواعِرُ) مُنْبَسِطَ الوَجْهِ :

‹‹ عَروسُ السَّلامِ .››

« وتَبادَلَتِ القَبيلَتانِ الرَّسائِلَ في سِرِّيَّةٍ وكِتْمانٍ ، حَتّى

جاءَ يَوْمٌ احْتَشَدَتِ الْقَبيلَتانِ ، و وَقَفَتْ خُيولُهُما وَجْهًا لِوَجْهٍ وكَأَنَّهُما عَلى وَشْكِ الدُّخولِ في مَعْرَكَةٍ . كانَتِ (الْمُلَثَّمُ) عَلى فَرَسٍ في الْمُقَدِّمَةِ وَقَدْ لَبِسَتْ لِباسَ الْفُرْسانِ ، وأَحْكَمَتْ لِثامَها عَلى وَجْهِها ، وبِجوارِها أَبوها عَلى فَرَسٍ . وفي الْمُواجَهَةِ كانَ (الواعِرُ) عَلى فَرَسٍ ، وبِجوارِهِ أُخْتُهُ عَلى فَرَسِها . الْكُلُّ مُدَجَّجٌ بِالسِّلاحِ ، وَلا يَدْرونَ السَّبَبَ في هَذا الاحْتِشادِ الْعَظيمِ ، ولَمْ تُدَقَّ طُبولُ الحَرْبِ !

« كانَتْ عُيونُ النّاسِ تَنْتَقِلُ هُنا وهُناكَ مُتَسائِلَةً مُتَحَيِّرَةً ، خاصَّةً مَنْ أَتى مِنَ النِّساءِ . وقَطَعَ الصَّمْتَ أُخْتُ (الواعِرِ) قائِلَةً :

‹‹ الْمُنْتَصِرونَ ، يا أَخي ، أَتَوْا إِلَيْكَ لِيَمْنَحوكَ انْتِصارَهُمْ !›› وأَشارَتْ إِلى (الْمُلَثَّم) .››»

قُلْتُ لِجَدّي وأَنا أَشْعُرُ بِالسَّعادَةِ لِهَذِهِ النِّهايَةِ : « وطَبْعًا

لَمْ يَفْهَمْ أَحَدٌ شَيْئًا . »

قالَ جَدّي : « نَعَمْ . سِوى القِلَّةِ مِنَ الزُّعَماءِ في كِلا الْجانِبَيْنِ .

« وتَحَرَّكَ حِصانُ أُخْتِ (الواعِرِ) خُطْوَةً إلى الأَمامِ في اتِّجاهِ (الْمُلَثَّمِ) ، وامْتَدَّتْ يَدُها فَأَزاحَتِ اللِّثامَ بِثِقَةٍ وهُدوءٍ مِنْ عَلى وَجْهِ (الْمُلَثَّمِ) ، فَوَثَبَ شَعْرُ الْفَتاةِ الأَسْوَدُ لِيُحيطَ بِوَجْهٍ هُوَ الْقَمَرُ ، هُوَ وَجْهُ (الْمُلَثَّمِ) الْمُخْتَفي في تَنَكُّرٍ طَويلٍ !

« وأَرْدَفَتْ أُخْتُ (الواعِرِ) مُخاطِبَةً جُموعَ الْقَبيلَتَيْنِ :
‹‹ أَ تَرَوْنَ هَذا الْوَجْهَ الفاتِنَ ؟ إنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ الْوَجْهُ الحَقيقيُّ لِلْفارِسِ الْمُنْتَصِرِ . وهُوَ ما أُزَكّيهِ عَروسًا لَكَ ، يا أَخي . ››

« وأَشارَتْ بِالْتِفافَةٍ كَالسَّهْمِ إلى أَخيها (الْواعِرِ) ، فَأَشْرَعَ (الْواعِرُ) سَيْفَهُ إلى أَقْصى ارْتِفاعٍ لِساعِدِهِ ، وقالَ :

‹‹ وأَنا قَبِلْتُ تَزْكِيَتَكِ ، يا أُخْتي ، إذا ما قَبِلَتِ (الْمُلَثَّمُ) ، وبارَكَ ذَلِكَ قَوْمي وقَوْمُها الْكِرامُ ! ››

« وحينَئِذٍ تَعالَتْ صَيْحاتُ الْفَرَحِ مِنَ الجانِبَيْنِ ، وانطَلَقَتِ الزَّغاريدُ مِنَ النِّساءِ ؛ فَقَدْ أَدْرَكوا كُلَّ شَيْءٍ . . ولَوَّحوا بِسُيوفِهِمْ في الْفَضاءِ فَرَحًا .

« وحَلَّتْ بِالْقُلوبِ طُمَأْنينَةُ السَّلامِ ، وسادَ بَيْنَ الْقَبيلَتَيْنِ الْوِئامُ . وكانَتِ الْبَناتُ سَبَبَهُ ورَمْزَهُ .

« وعاشَتِ (الْمُلَثَّمُ) حَياةً هادِئَةً هانِئَةً ، كَما عاشَ نِساءُ الْقَبيلَتَيْنِ ورِجالُهُما ، يَنْعَمونَ بالاسْتِقْرارِ ، ويَعْمَلونَ في ظِلِّ الأَمْنِ والأَمانِ . وشاءَ اللهُ أَنْ تُنْجِبَ (الْمُلَثَّمُ) ذَكَرًا ، قَرَّتْ بِهِ عَيْنُها وعَيْنُ أَبيها . وما إنْ شَبَّ حَتّى شوهِدَتْ عَلى ظَهْرِ جَوادٍ ، وغُلامُها عَلى ظَهْرِ جَوادٍ آخَرَ في طَريقِهِما إلى الصَّحْراءِ . وكانَتْ تَضَعُ اللِّثامَ ، كَما كانَتْ مَعَ غُلامِها مُجَهَّزَةً بِعُدَّةِ السِّلاحِ كامِلَةً !

« شاهَدَها أَحَدُ الشُّيوخِ فَسَأَلَها مُتَعَجِّبًا : ‹‹ إلى أَيْنَ ، يا مُلَثَّمَةُ ؟ هَلْ تَشَوَّقْتِ لِلْحَرْبِ ؟››

« فَأجابَتْ : ‹‹ بَلْ لِلسَّلْمِ ، يا عَمِّ . . فَالسِّلْمُ لا يَدومُ إلا إذا حافَظْنا عَلَيْهِ بِالاسْتِعْدادِ والتَّأَهُّبِ ، وكَأَنَّنا في حالَةِ الْحَرْبِ . ››»

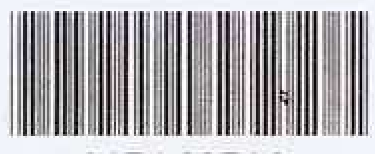
المحتويات



الينابيع تتفجر من التراث العربي الأصيل، ومن السير الشعبية الغنيَّة، ومن الحكايات الشعبية العربيَّة؛ لتصوّر نماذج مضيئة من تراثنا، وتعرض قيمًا مشرقة في حياتنا: تمزج بين الجد، والفكاهة في لغة هادئة راقية: لا تعلو فتعوق القارئ وتصده، ولا تسفُّ فتهبط بذوقه ومستواه، وإنما تمتع وجدانه وقلبه، وتثري فكره وعقله.

الينابيع

١- سَيف الإحسَان وَقصَص أخرَى
٢- حَبّات العقد وَقصَص أخرَى
٣- عَنترة بْن شدّاد: مَولِد البطَل
٤- عَنترة بن شدّاد: عَبلَة وَالصبيّ المقاتِل
٥- البَاحِث عَن الحَظّ وَقصَص أخرَى
٦- عَنترة بْن شدّاد: السّيف وَالكلِمَات
٧- عَنترة بن شدّاد: يَوم عَنترة
٨- رحْلة السّندباد المَجهُولَة
٩- الشّعْرَة الذّهبيَّة
١٠- مَشورَة قصَير وَقصَص أخرَى
١١- الدّهَان السّحريّ وَقصَص أخرَى
١٢- مَزْحَة صَيف وَقصَص أخرَى
١٣- كُرسيّ السّلطَان
١٤- بَدْر البُدُور
١٥- حِكايَة الفَتى العَربيّ وَقصَص أخرَى



01R160713

مَكتبة لبنَان نَاشِرُون
الشركَة المصريَّة العالميَّة لِلنشر- لونجمان